مصنفات أسامة بن منقذ وذويه التي لم يُهتَد بعدُ إلى مظانها في العلوم والآداب

د. حجازي عبد المنعم سليمان

كلية الآداب – جامعة المنوفية

قام بنو منقذ أمراء شيزر (٤٧٤-٥٥٢هـ/١٠٨١-١١٥٧م) بدور مهم على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية والعلمية في مصر وبلاد الشام والعراق واليمن؛ سواء قبيل عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م، أم في الفترة التالية لهذا التاريخ المرتبط بانتهاء نفوذهم السياسي في شيزر على مدار ثمانية وسبعين عامًا حتى انهارت قلعة شيزر نتيجة الزلازل التي وقعت في ذلك العام، خصوصًا أن بعض أمراء بني منقذ، ومن بينهم أسامة بن منقذ (ت: ٥٨٤هـ/١١٨٨م) وإخوته الذين لم يكونوا في القلعة آنذاك ولفترة طويلة سبقت انتهاء حكمهم في شيزر؛ وذلك بسبب وقوع عدة خلافات سياسية اضطرت بعضهم إلى الرحيل عن شيزر عام ٥٣٢هـ/١١٣٨م. وقد قُدر لبعض هؤلاء الأمراء أن يقوموا بدور مهم في مصر وبلاد الشام والحجاز واليمن وشمال افريقية على الأصعدة السياسة والحضارية، ونجح بعضهم في الوصول إلى مكانة علمية وأدبية مرموقة في تلك البلاد.

وعلاوة على العوامل السياسية فقد كان للرحلة في طلب العلم أثر ملموس في خروج بعض الأمراء بإرادتهم عن شيزر التماسًا للعلم، وبخاصة لطلب علوم الفقه والحديث في بغداد ودمشق والقاهرة، وقد استقر بعضهم في تلك المدن وغيرها بمحض إرادتهم، ثم تلاهم غيرهم مُضطرين نتيجة للزلازل التي اجتاحت شمال بلاد الشام ودمرت شيزر، فرحلوا عنها وآثروا العيش في كنف قوى سياسية أخرى في مدن حلب ودمشق والقاهرة وعدن وغيرها[1].

[1]- لمزيد من التفاصيل عن بني منقذ وأثرهم العلمي والأدبي خارج شيزر انظر: ابن عساكر (علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي ت: ٥٧١هـ/١١٧٦م): تاريخ دمشق، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، جـ٧، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م، ص٢١-٢٢؛ الأصفهاني (محمد بن صفي الدين الملقب بـ*عماد* الدين الكاتب، ت: ٥٩٧هـ/١٢٠١م): خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق: شكري فيصل، جـ١، دمشق، ١٩٥٥م، ص٥٧٥-٥٧٩؛ ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ت: ٦٦٠هـ/١٢٦٢م): بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، جـ٤، دمشق، ١٩٨٠م، ص١٨٠٤-١٨٠٨، جـ٦، ص٢٨٤٢-٢٨٤٥، جـ٩، ص٤١٨١.

وقد تعرضت عدّة دراسات سابقة لدراسة العلوم والآداب لدى بني منقذ بعامة وأسامة بن منقذ بخاصة، وفي صدارتها دراسة حسن عباس عن أسامة بن منقذ التي قدم فيها لحياة أسامة في نشأته وتعليمه ومصادر ثقافته وشيوخه وتلاميذه وأهم مُصنفاته. وتُعد دراسته واحدة من أوفى الدراسات التي تناولت أهم آثار أسامة العلمية في عصره، ولكنها اقتصرت على معالجة مُصنفات أسامة وحده دون التعرض لبقية أفراد أسرته، وركز حسن عباس على دراسة المطبوع من تلك المصنفات ولم يفرد للمصنفات التي لم يُهتدَ بعدُ إلى مظانها مساحة كافية.

علاوة على ما قدمه محمد عدنان قيطاز في دراسة بعنوان "أسامة بن منقذ والجديد من آثاره وأشعاره"، وقد قدمت تلك الدراسة لأهم مُصنفات أسامة بن منقذ ومنهجه في تصنيفها، ولكنه اكتفى بعرض أسماء بعض مُصنفاته الأخرى التي قدمها المؤرخون والمترجمون، ناهيك عن اقتصار قيطاز على مصنفات أسامة وحده، مثلما لم يعرض للكثير من المصادر التي لم يُهتدَ بعد إلى مظان وجودها، ومنهج أسامة في تصنيفها اعتمادًا على النصوص التي نقلها بعض المؤرخين عنها، ناهيك عن بقية مُصنفات بني منقذ الأخرى وأهم دروب العلم والأدب التي تنتمي إليها.

والواقع أن السمة الأخيرة والممثلة في التركيز على أسامة بن منقذ ومُصنفاته المنشورة على وجه خاص هي السمة الغالبة على الدراسات السابقة[٢]، ولم ينل غيره من

[٢]- عن الدراسات الحديثة التي تعرضت لأسامة بن منقذ وبقية أسرة بني منقذ ودورهم السياسي والحضاري في بلاد الشام بعامة وشيزر بخاصة انظر: فيليب حتى: "درس في حياة أسامة بن منقذ وكتاب الاعتبار"، مجلة المجمع العلمي العربي، مجلد١٠، ١٩٣٠م؛ محمد أحمد حسين: أسامة بن منقذ؛ صفحة من تاريخ الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٤٦م؛ أحمد كمال ذكي: أسامة بن منقذ، القاهرة، ١٩٦٨م؛ جرجس مخول: "شيزر وبنو منقذ"، مجلة البحث التاريخي، عدد ١، ١٩٧٧م؛ وفاء محمد علي جاغوص: بنو منقذ ودورهم في زمن الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٧٩م؛ محمد محمد مرسي الشيخ: الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، الإسكندرية، ١٩٨٠م؛ حسن عباس: أسامة بن منقذ، جزءان، الهيئة العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨١م؛ محمود عبد الله الجفال: أسامة بن منقذ، حياته وشعره، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة؛ طاهر الغساني: أسامة بن منقذ، أو شيزر وأل منقذ، المكتبة الوطنية، حماة، د.ت؛ كامل شحادة: "قلعة شيزر؛ ماضيها وحاضرها"، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، تصدرها المديرية العامة للآثار والمتاحف، سوريا، ١٩٨١م؛ محمد جاسم: إمارة بني منقذ العربية، بغداد، ١٩٨٥م؛ أحمد قدري الكيلاني: أسامة بن منقذ، دمشق، ١٩٩٧م؛ براءة محمود السقرات: كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، دراسة تحليلية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، ٢٠١١م؛ عامر غسان الشدود: الإمارة المنقذية في شيزر (٤٧٤-٥٥٢هـ/١٠٨١-١١٥٧م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة تشرين، سوريا، ٢٠١٦م. وأيضًا: Derenbourg, *Ousama Ibn Mounkidh , Un Emir Syrian au premiere siecle des Croisades*, Vie de Ousama, (Paris, 1889); Huart., *Ousama Ibn Mounkidh*, J.R.A.S., (1890).

أفراد أسرته الاهتمام الذي ناله، ولم تنل المصنفات التي لم يُهتد بعد إلى مظان وجودها – والتي صنفها بعض بني منقذ – نصيبها من الدراسة الوافية في الدراسات السابقة.

كما سبق وتعرضتُ لدراسة العلوم والآداب لدى بني منقذ في دراستي الموسومة بـ "إمارة شيزر في عصر بني منقذ ٤٧٤-٥٥٢هـ/١٠٨١-١١٥٧م"[٣]، وقد أفردت فيها فصلًا بعنوان "الحياة العلمية والأدبية" لدى بني منقذ، وتعرضت فيه لدراسة كافة نواحي العلوم والآداب بشكل عام لدى بني منقذ وغيرهم من رعاياهم في إمارة شيزر، إضافة إلى اقتصار الدراسة على الفترة الزمنية التي ارتبطت بوجود الكيان السياسي والإداري لبني منقذ في شيزر.

وحينما تعرضتُ إلى مصنفات بني منقذ ذكرتُ المنشور منها وذلك بخلاف هذا البحث الذي يسعى إلى دراسة جميع المصنفات التي وضعها بنو منقذ ولم يُهتد بعد إلى مظان وجودها، كما سأُقصر الدراسة على بني منقذ وحدهم وليس رعاياهم. ولن ألتزم بالإطار الزمني لفترة حكم بني منقذ في شيزر وإنما سيشمل الإطار الزمني لهذه الدراسة فترة حكم بني منقذ لشيزر بعامة إضافة إلى الفترة التي تلت خروجهم من شيزر وانتشارهم في بلدان مصر والشام والعراق وخدمتهم لكلٍ من نور الدين وصلاح الدين وأخيه العادل وولده الملك الكامل وغيرهم من أمراء الأيوبيين في مصر والشام واليمن، أي منذ نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وحتى منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي.

ولكي يكون هدف الدراسة وفلسفتها واضحًة فإنني لا أسعى إلى معالجة دور بني منقذ السياسي والحضاري سواء خلال إمرتهم لشيزر (٤٧٤-٥٥٢هـ/١٠٨١-١١٥٧م) أم في الفترة التالية لضياع إمرتهم في شيزر وخروجهم منها؛ لأنه سبق دراسة تلك النواحي بالفعل جملةً وتفصيلًا في كثير من الدراسات الأكاديمية الجادة، وإنما تهدف الدراسة إلى الوقوف على مصنفات بني منقذ في مجالي العلوم والآداب، ومن ذلك دراسة لبعض الجوانب العلمية

[٣]- حصلت بهذه الدراسة على درجة الماجستير وقمت بنشرها. انظر: حجازي عبد المنعم سليمان: إمارة شيزر في عصر بني منقذ، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠١٤م.

والأدبية لبني منقذ، ولكن بشكل غير مباشر هدفه الرئيس التركيز على المصنفات التي لم يُهتدَ بعدُ إلى مظان وجودها، ووضع تصور لأهميتها ومحتواها ومنهجها، ومحاولة تحديد الفرع العلمي أو الأدبي الذي تُنسب إليه سواء بالوقوف على وصف المؤرخين والمترجمين لبعضها، أم من خلال استقراء بعض النصوص التي نُقلت عنها، وبخاصة أن بعض مصنفاتهم محل الدراسة تُعد من جُملة المصادر الرئيسة التي اعتمدت عليها مصادر لاحقة؛ من بينها مصادر ترجمت لهم على غرار "خريدة القصر" للأصفهاني، "جنان الجنان ورياض الأذهان" لابن الزبير، و"معجم الأدباء" لياقوت الحموي، "بغية الطلب" لابن العديم وغيرها كثير.

وعلى الرغم من كثرة إشارات المصادر المعاصرة سواء التاريخية أم الأدبية إلى بعض مصنفات بني منقذ ونقلهم عنها فإنهم لم يتعرضوا إلى بعضها الآخر، ولم تتجاوز إشارتهم إليها أكثر من الإشارة إلى عنوان المُصَنف سواء كاملًا أم مُوجزًا وبدون أية تفاصيل أخرى، مما يعني صعوبة نسبة تلك المصنفات إلى أي من فروع العلوم والآداب، ومن ثم بقاء مادتها ومنهج مُصنفها غامضًا. وبالرغم من هذا فإن نقص المادة العلمية لا يُعد من ضمن الصعوبات التي تواجه الباحث سواء في كمها أم نوعها، وإنما تتمثل الصعوبة في تناثرها في متون المصادر التاريخية والأدبية بحيث قد لا تتعدى أحيانًا إشارة في سطر أو جملة.

وسوف تعالج هذه الدراسة أهم مُصنفات بني منقذ التي لم يُهتد بعد إلى مظان وجودها في فروع العلوم والآداب التي صنفوا فيها، ويتصدرها العلوم الدينية وعلوم العربية وآدابها، والتاريخ والتراجم والمناقب والسير، والمعاجم والمُصنفات الجغرافية، والنظم والرسوم وأخيرًا وليس آخرًا الزهد، ولعل هذه الدراسة المتواضعة تكون محفزة ليّ على جمع النصوص التي نقلتها المصادر المعاصرة والمتأخرة عن مصنفات بني منقذ التي لم يُهتد بعد إلى مظان وجودها وإعادة بناء بعض نصوصها وتحقيقها ونشرها في دراسة مستقلة أوسع وأشمل في المستقبل القريب إن شاء الله.

العلوم الدينية

أولى أمراء بني منقذ اهتمامًا كبيرًا بالعلوم الدينية، وحرصوا على استقدام العلماء والفقهاء إلى الإمارة كي يتتلمذ صغار الأمراء على أيديهم، بينما طلب بعضهم علوم الفقه والحديث في بغداد وحلب ودمشق وغيرها من حواضر العالم الإسلامي الرائدة في العلوم الدينية آنذاك، وكان لأسامة بن منقذ[٤] اهتمام كبير بالكتابة والتصنيف في العلوم الدينية في الفقه والحديث وما سواهما. ويُرجح الباحث انتساب بعض مصنفاته إلى العلوم الدينية، وذلك في ضوء عنوانها والإشارات القليلة التي أوردها بعض من ترجم لهم، ومن تلك المصنفات كتاب "وسائل السائل"، وفي ضوء ما أشار إليه المقريزي فمن الراجح معالجة الكتاب للأدعية وأوقاتها وما ورد فيها[٥]. وقد سلك أسامة منهجًا يكاد يُلحظ في مصنفاته الأدبية المنشورة – وبخاصة لباب الآداب – مُمثلة في الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمأثور من أقوال الصحابة والتابعين والفقهاء والحكماء والأدباء والمتعلقة بالقضية التي يناقشها.

ويُنسب إلى أسامة أيضًا في الدرب ذاته كتاب آخر أسماه "زجر عمرو بن بحر الجاحظ" وقد جمع فيه ما يخص النهى عن الزنا واللواط والفواحش[٦]. وإليه نسب ياقوت الحموي كتابًا آخر بعنوان "القضاء"[٧] ولكنه لم يُشر إلى محتواه أو إلى هدفه ومنهجه، ونظرًا لعدم وقوف الباحث على توصيف مادة تلك الكتب أو على نصوص مأخوذة عنها فإن ما نسوقه في مادة تلك الكتب وغيرها من قبيل الترجيح.

وعلاوة على ذلك فقد أشار ابن العديم إلى وضع أسامة كتابًا آخر وسمه بـ "أزهار الأنهار"، وقد نقل نصًا عن ذلك الكتاب في معرض ترجمته لأسامة، ويُشير فيه إلى إحدى العجائز من المُرضعات اللائي أرضعنه في صغره جاء فيه: "... ومما يخصني من غرائب اللبن أنني حين وُلدت التمس لي من يُرضعني، فقدر الله سبحانه الرزق من امرأة كبيرة قد

---

[٤]- ياقوت الحموي (ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي ت: ٦٢٦هـ/١٢٩٩م): معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، جـ٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م، ص١١٠-١١٣.

[٥]- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي ت: ٨٤٥هـ/١٤٤٢م): المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليبلاوي، جـ٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م، ص٤٨.

[٦]- المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٨. ولم أقف على الكتاب لدى حاجي خليفة في كشف الظنون.

[٧]- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، جـ٢، ص١١٠.

نيفت عن الستين سنة، ليس لها ولد صغير، فدرّت عليّ وأرضعتني إلى حين فطمت، وعاشت بعد فطامي نحوًا من خمس عشرة سنة، وكانت رحمها الله متى عصرت ثديها طار منه اللبن كأنها مُرضعة...".

علاوة على رواية أخرى أوردها أسامة عن فضل المرضعات على أحد أمراء اليمن وقبوله شفاعتها في سكان إحدى المدن – التي تمردت عليه – تقديرًا من الأمير اليمني لمرضعته على إرضاعه والعناية به صغيرًا[٨]، بينما أجمل المقريزي محتوى الكتاب بقوله: "...فيه صفة الجنة ومنافع اللبن ومضاره..."[٩]، وفي ذلك تأكيد لما أشار إليه ابن العديم عن صفة الكتاب من أنه – وبترجيح إحسان عباس أيضًا – قد اتخذ اتجاهًا أخلاقيًا[١٠].

وبناء على ما نقله ابن العديم عن الكتاب فإن الباحث يرجح تضمن الكتاب عدة مواقف كان أسامة طرفًا فيها، بينما أخذ بعض رواياته مُشافهة ممن قابلهم في شيزر وغيرها[١١]، وقد رجع إليه الوطواط في كتابه "مباهج الفكر ومناهج العبر" في حديثه عن بقر الخيس الذي يكثر في دمياط ويدر الكثير من اللبن "... وحكى ابن منقذ في كتابه أزهار الأنهار... وأظنها الأبقار التي توجد فيها الراجم، وسمعت من يقول إنها أبقار عمالة في بلاد

---

[٨]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٣، ص١٣٥٩-١٣٧٠.
نقل ابن العديم رواية أخرى عن كتاب أزهار الأنهار ولكنها أطول وترجح ما ذهب إليه المقريزي عن أهمية الكتاب ومادته، وقد ورد في روايته الأخرى ما يلي: "نقلت من خط أسامة من كتابه الموسوم بأزهار الأنهار قال: حدثني القاضي أبو النمر بن العنزي رحمه الله بحصن شيزر قال: سافرت إلى اليمن فاتصلت ببعض سلاطين اليمن، فأتاه الخبر بعصيان أهل بلد من بلاده، فركب وسار إليه وأنا صحبته، وهو في خلق كثير على الركاب، وأقسم ليستبيحن دماءهم وأموالهم، فسرنا حتى نزلنا على المدينة، وأمر بالتأهب لقتالهم وهجم المدينة، فرأينا امرأة قد خرجت من المدينة، وجاءت تتخطى الناس حتى وصلت إلى السلطان وأنا عنده فسلمت عليه فرحب بها، وأكرمها وأجلسها، ثم قال لها: ما حاجتك؟ قال: جئتك أسألك أن تهب لي هذه المدينة وأهلها، فقال: هؤلاء قد أظهروا العصيان والشقاق، وقد أقسمت أن أستبيح دماءهم وأموالهم، فقالت: بل ترجع عن هذا إلى المعتاد من صفحك وكرم عفوك، وتهب لي ذنبهم ودماءهم وأموالهم، فقال ما أفعل ولا أفُسد مملكتي واستدعي عصيان رعيتي بصفحي عن هؤلاء المنافقين، فغضبت وقامت وقالت: نسيت حقي وحرمتي وأطرحتني، حتى أني أسألك في مدينة من مدائنك لتقضي بها حقي ولا توجب سؤالي!! ثم ولت فأطرق ثم قال: ردوها، فلما عادت اعتذر إليها وتلطفها، وقال: قد وهبت لك البلد وأموال أهله ودماءهم، وها أنا راحل، ثم أمر الناس بالرحيل ونفذ من رتب أمر البلد وسار، فسألت عن تلك المرأة فقيل لي: إن هذه امرأة كانت ترضعه، وكان أبوه مالك هذه البلاد فقام عليه أخوه فقتله، وملك البلاد، وهذا إذ ذاك طفل، فتطلبه عمه ليقتله فخبته هذه المرأة بينها وبين ثيابها وأخفته، وخرجت به من البلد فربته في خمول، واختفى حتى كبر وجار عمه على الرعية وأساء إليهم، فوثبوا عليه قتلوه، ونفذوا أحضروا هذا وملكوه عليهم كما ترى، فهي تُذكّره بما فعلته في حقه وهو يرعى لها ذلك الصنع". انظر: ابن العديم: بغية الطلب، جـ١٠، ص٤٦٤٣-٤٦٤٤.

[٩]- المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٨.

[١٠]- إحسان عباس: شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م، ص١١٣.

[١١]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ١٠، ص٤٦٤٣-٤٦٤٤.

يُقال لها خم وتافة وبلجستان وهي ملونة بيض وسود وبلق، والبراجم تكون في رؤوس أذنابها وهي الكبار على كتفها وهي الصغار"[١٢].

وأقدم أسامة على التصنيف في درب آخر ممثل في الأحلام وتعبير الرؤيا، حينما وضع كتابه "النوم والأحلام"، وهو من المُصنفات التي أشار إليها أسامة في كتابه "الاعتبار"[١٣] وكذا المقريزي في "المقفى الكبير"[١٤]. وقد أوضح أسامة مادة كتابه ومنهجه فيه ببساطة "...وقد تقدّم ذكر شيء من غريب الأحلام، وقد أوردت في كتابي المترجم بكتاب النوم والأحلام من ذكر النوم والأحلام وما قيِل فيها وفي أوقات الرؤيا، وفي أقوال العلماء فيها، واستشهدت على أقوالهم بما ورد فيها من أشعار العرب ووسعت الشرح وأشبعت المعنى، فما حاجة إلى ذكر شيء منه ها هنا"[١٥]، ثم أورد رواية طويلة تحدث فيها عن مُربية أبيه مرشد ثم ربت أسامه ورعته وظلت على قيد الحياة حتى قامت على تربية أولاده.

وقد تحدّث أسامة عن رؤية تلك السيدة فيما بعد لرؤيا في نومها تُبشرها بأنها لن تعاني من القولنج الذي كان يُزعجها في الفترة الأخيرة، ويؤكد أسامة أنها لم تعد تعاني منه حتى وفاتها عن عمر يناهز المائة عام. ويُعلق أسامة على تلك الرواية بأن ما رأته تلك السيدة في نومها من الأمور العجيبة والغريبة[١٦]، وهذا مما يرجح بقوة أن تكون مادة الكتاب وخطته على السياق ذاته الذي أظهرته الرواية، مما يعني من جهة أخرى ترجيح انتماء الكتاب إلى علم تعبير الرؤيا، والذي يتعرف منه الاستدلال من المتخيلات الحُلمية على ما شاهدته النفس في وقت النوم من عالم الغيب "...فخيلته القوة المتخيلة مثالًا يدل عليه في عالم الشهادة...ومنفعته البشري بما يرد على الانسان من خير والإنذار بما يتوقعه من شرّ، والاطلاع على الحوادث في العالم قبل وقوعها..."[١٧].

---

[١٢]- الوطواط (جمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحي بن علي ت:٧١٦هـ): مباهج الفكر ومناهج العبر، تحقيق: عبد الرازق أحمد الحربي، جـ١، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٠م، ص٥٩.

[١٣]- أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص١٨٥-١٨٦.

[١٤]- المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٨.

[١٥]- أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص١٨٥-١٨٦.

[١٦]- أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص١٨٥-١٨٦.

[١٧]- محمد علي التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ترجمه من الفارسية إلى العربية: عبد الله الخالدي، تحقيق: علي دحروج، جـ١، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ١٩٩٦م، ص٥٦.

يُعد الأدب من أهم ما حظي برعاية بني منقذ ونتيجة لذلك فقد كثر إنتاجهم في الشعر والنثر والبلاغة[١٨]. وبشكل عام فقد شهد هذا العصر عناية بجمع النصوص الأدبية إما للتهذيب الخلقي لما للأدب من تأثير إيجابي على النفس، أو لتقويم اللسان وتهذيب البيان بضرب المُثل الصالحة أو للتعريف بالأدباء، ولا ريب في أن خير وسيلة لذلك الإشارة إلى آثارهم[١٩].

وقد وضع أسامة بن منقذ كثيرًا من المصنفات في مجال الأدب على قول الصفدي: "...وله تصانيف عديدة في فنون الأدب"، ومن جملة المصنفات التي لم يُهتد بعد إلى مظان وجودها كتاب "ذيل يتيمة الدهر" التي سماها كل من ياقوت والصفدي "ذيل يتيمة الدهر للثعالبي"[٢٠]، بينما سماها الذهبي "ذيل على خريدة القصر للباخرزي"[٢١]، وذلك وهم منه لأن خريدة القصر من تصنيف العماد الأصفهاني بينما صنف الباخرزي دمية القصر[٢٢].

[١٨]- ذاع صيت بني منقذ في نظم الشعر على قول الأصفهاني: "...أما الأدب فهم شموعه المشرقة ورياضه المونقة وحياضه المغدقة، وأما النظم فهم فرسان ميدانه وشجعان فرسانه وأرواح جثمانه"، وقد ضمت معظم مُصنفات العصر التي تناولت تراجمهم الكثير من أشعارهم، ووفق الأصفهاني في جمع أكبر قدر من شعر أمراء الأسرة مما قيل في أغراضه المختلفة كالرثاء والغزل والوصف وغيره، وقد عالج هذا الشعر خصائص الحياة في العصور الوسطى، فبرزت خلاله بعض الصور السياسية والاجتماعية والاقتصادية وبعض مظاهر البيئة المحيطة. انظر: الأصفهاني: خريدة القصر، جـ١، ص٤٩٧-٥٧٤.

[١٩]- أحمد أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط٨، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٣٨.

[٢٠]- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، جـ٢، ص١١٠؛ الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله ت: ٧٦٤هـ/١٣٦٣م): الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وآخرون، جـ٨، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م، ص٣٨٢؛ الذهبي (الحافظ شمس الدين أبو عبد الله ت: ٧٤٨هـ/١٣٤٧م): سير أعلام النبلاء، تحقيق: بشار عواد معروف ويحيى هلال السرحان، جـ٢١، ط١١، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦م، بيروت، ص١٦٦.

[٢١]- الذهبي (الحافظ شمس الدين أبو عبد الله ت: ٧٤٨هـ/١٣٤٧م): سير أعلام النبلاء، تحقيق: بشار عواد معروف ويحيى هلال السرحان، جـ٢١، ط١١، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦م، بيروت، ص١٦٦.

[٢٢]- محمد عدنان قيطاز: أسامة بن منقذ والجديد من آثاره وأشعاره، دمشق، ١٩٩٨م، ص٧١-٨٢. وقد نهج كثيرًا من الأدباء نهج الثعالبي ونسجوا على منواله مثل: علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب الباخرزي (ت:٤٦٧هـ) في كتابه "دمية القصر" وسعد بن علي بن القاسم الأنصاري الخزرجي الحظيري (ت:٥٦٨هـ/١١٧٣م) في كتابه "زينة الدهر" والعماد الكاتب الأصفهاني (ت:٥٩٧هـ/١٢٠١م) في كتابه "خريدة القصر وجريدة العصر"، وكلها تُعد متممة لليتيمة ودائرة في فلكها. انظر: محمد عدنان قيطاز: أسامة بن منقذ، ص٧١-٨٢.

وتُعد تلك الكتب حلقات في سلسلة لأهم المجموعات الشعرية التي وُضعت في الشعر العربي واعتمدت على التنقل بين المدن والبلدان لمقابلة الأدباء وجمع أشعارهم وقصائدهم[٢٣].

وقد تسنى لأسامة خلال رحلاته أن يلتقي بالأدباء والشعراء في مصر والشام والعراق[٢٤]، كما راسل من عجز عن اللقاء به على نحو اتصاله بالقاضي الرشيد أبا الحسين أحمد بن عليّ بن الزبير في مصر[٢٥] وكذا الوزير الفاطمي طلائع بن رزيك[٢٦] وغيرهما، وسواء ذيَّل أسامة بن منقذ على الباخرزي أم ذيّل على العماد الأصفهاني فإنه ذيّل على يتيمة الدهر[٢٧]. وإن كنت أرجح صعوبة تذييل أسامة على خريدة القصر للأصفهاني الذي لم يعكف على التصنيف إلا في أواخر أيامه بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٩هـ/١١٩٣م؛ حينما اعتزل الحياة السياسية وتفرغ لوضع مُصنفاته المعروفة، وكان أسامة وقتها قد توفي منذ عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م مما يرجح تذييل أسامة على يتيمة الدهر للباخرزي وليس على خريدة القصر للأصفهاني. ويُعد كتاب "ذيل يتيمة الدهر" لأسامة واحدًا من هذه التتمات المستحسنة بسبب الامتياز الأدبي الذي تمتع به أسامة وحسن ذوقه وتفوقه في اختيار النصوص[٢٨].

وقد ترتب على شهرة أسامة في مجال الأدب واتصاله الواسع بأهله وبطبقاتهم وأشعارهم وحفظه لدواوينهم – وحفظه ما يربو على عشرة آلاف بيت (وقيل عشرين ألف) من شعر شعراء الجاهلية[٢٩] – أنه غدا مصدرًا مهمًا للقاضي الرشيد بن الزبير الذي راسله طلبًا

---

[٢٣]- حسن عباس: أسامة بن منقذ، جـ٢، ص٥٦-٥٨.

[٢٤]- أسامة بن منقذ (ت مؤيد الدولة ابن منقذ الشيزري ت: ٥٨٤هـ/١١٨٨م): كتاب الاعتبار، تحقيق: فيليب حتى، برنستون، ١٩٣٠م، ص١٣٤، ١٧٠-١٧١؛ أسامة بن منقذ: المنازل والديار، تحقيق: مصطفي حجازي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٤م، ص١٣؛ ابن العديم: بغية الطلب، جـ٣، ص١٣٥٩.

[٢٥]- أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص١-٣٣؛ أسامة بن منقذ: ديوان أسامة، تحقيق: أحمد بدوى، وحامد عبد المجيد، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٣م، ص١٠٩، ١٢١، ١٣٣، ١٥٥؛ أسامة بن منقذ: لباب الآداب، ص٣٨٠؛ ابن خلكان (أحمد بن محمد بن إبراهيم ت:٦٨١هـ/١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، جـ١، دار صادر، بيروت، ص١٦٠-١٦٣.

[٢٦]- أسامة بن منقذ: ديوان أسامة، ص٢٢٦-٢٢٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص١٦٠-١٦٢.

[٢٧]- حسن عباس: أسامة بن منقذ، جـ٢، ص٥٨.

[٢٨]- محمد عدنان قيطاز: أسامة بن منقذ، ص٨٢.

[٢٩]- ذكر الذهبي أن أسامة بن منقذ كان يحفظ عشرة آلاف بيت فقط لا عشرون كما هو مذكور أعلاه. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٢١، ص١٦٦. وأيضًا: ابن العديم: بغية الطلب، جـ٣، ص١٣٦٠.

لتراجم بعض شعراء الشام كي يُودعهم كتابه "جنان الجنان ورياض الأذهان"[٣٠]، وفي ذلك يقول ابن خلكان: "وجدت جزءًا كتبه بخطه للرشيد بن الزبير حتى يلحقه بكتاب الجنان، وكتب عليه أنه كتبه بمصر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، فيكون قد دخل مصر في أيامه وأقام بها حتى قُتل العادل بن السلار، إذ لا خلاف أنه حضر هناك وقت قتله"[٣١].

وقد استجاب أسامة لابن الزبير وبعث إليه بما أراد في كتاب – أو مجموع على قول ابن العديم – ذكره المقريزي قائلًا: "...وكتاب فيه شعر جماعة سأله ابن الزبير عنهم..."[٣٢]. وعلى الرغم من بقاء هذا الكتاب ضمن كتب أسامة التي لم يُهتد بعدُ إليها، فقد ترتب على اعتماد ابن العديم على ذلك المجموع ونقله عنه كثيرًا من تراجم أدباء القرنين الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ممن ترجم لهم[٣٣] بقاء كثير من النصوص التي ضاعت بضياع الكتاب مما منحنا فرصة هائلة لوضع تصور تقريبي لمادة الكتاب – أو المجموع – ومنهجه.

ويتضح مما نقله ابن العديم أن المجموع تعرض لتراجم كثير من مشاهير شعراء مصر والشام والعراق في القرنين الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين. ولعل من أهم من ترجم لهم أسامة في "مجموعه" الذي أرسله إلى ابن الزبير كل من: ابن قطرميز حيدرة بن أحمد بن عمر بن موسى[٣٤]، والفقيه أبو على الحسن بن أحمد المعلم[٣٥]، وسالم بن عبد الجبار بن المهذب[٣٦]، وسالم بن هبة الله بن علي بن المبارك[٣٧] وأحمد بن عبيد الله الأسدي المعروف بالخيشي[٣٨]، والحسن بن عبد الله بن أحمد بن عبد

---

[٣٠]- ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص١٦٠-١٦٣؛ ابن العديم: بغية الطلب، جـ٣، ص١١٥٨-١٢٨٢، جـ٥، ص٢٢٧٩-٢٢٨٠، ٢٤١٨-٢٤٢١، جـ٦، ص٣٠٠٩-٣٠١١، جـ٩، ص٤٠٨٢-٤٠٨٤.

[٣١]- ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص١٦٠-١٦٢.

[٣٢]- المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٩.

[٣٣]- من الشعراء والأدباء الذين اعتمد ابن العديم في الترجمة لهم على مصنفات أسامة بن منقذ كل من الأمير المهند أبو نصر أحمد بن عبيد الله الأسدي المعروف بالخيشي، وعبد الله بن الدويدة المعري وغيرهما. انظر: ابن العديم: بغية الطلب، جـ٢، ٧١٦-٧١٩، جـ٣، ص١٢٨٢-١٢٨٣، جـ٤، ص١٦٣٠، جـ٥، ص٢٢٧٨.

[٣٤]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٦، ص٣٠٠٩-٣٠١١.

[٣٥]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٥، ص٢٢٧٨.

[٣٦]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٩، ص٤١٤٦-٤١٤٨.

[٣٧]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٩، ص٤١٧٣.

[٣٨]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٢، ص٧١٦-٧١٨.

الجابر بن أبي حصينة[٣٩]، والأصيلح المعلم الكفرطابي[٤٠]، والرئيس أبو تراب حيدرة بن أحمد بن عمر بن موسى[٤١]، وأحمد بن منير الطرابلسي[٤٢]، وأبو البركات بن أبي جوزة المعري[٤٣] وغيرهم من الأدباء والشعراء ممن ترجم لهم ابن العديم معتمدًا على ما كتبه أسامة وأرسله لابن الزبير كي يلحقهم بكتابه "جنان الجنان ورياض الأذهان"[٤٤]. ويلحظ الباحث أن هؤلاء الأدباء من بلاد الشام ولأجل ذلك كان أسامة من أنسب أدباء عصره للحديث عنهم؛ لأن بلاد الشام كانت مسقطًا لرأسه وموطنه وفيها قضى غالبية حياته متنقلًا بين مدنها ومتصلًا بأهل الأدب في ربوعها.

وقد سلك أسامة في أغلب تراجمه منهجًا يكاد يكون ثابتًا حيث شملت تراجمه ولادة المترجم له ووفاته والأماكن التي تردد عليها وثقافته وأهم شيوخه الذين أخذ عنهم والتلاميذ الذين أخذوا عنه وتأثروا به، واتصالاته بشعراء عصره وبعض أبلغ أشعاره. والتراجم على هذه الصورة قريبة مما قام به بعدئذ كل من العماد الكاتب الأصفهاني في "خريدة القصر" وياقوت في "معجم الأدباء".

وعلى ما يبدو فقد اعتمد أسامة على مصادر أخرى كوالده مرشد بن منقذ(ت:٥٣١هـ/١١٣٧م)، وبخاصة في ترجمته للشخصيات التي عاصرت فترة والده أو كانت سابقة عليه، كما اعتمد على تجاربه الشخصية في الترجمة لمن التقى بهم في أثناء أسفاره ورحلاته وما إلى ذلك من مصادر الحصول على مواد تراجمه. ويبدو حرص أسامة

---

[٣٩]- نقل ابن العديم عن أسامة في هذا الشأن قوله: "... الأمير أبو الفتح بن أبي حصينة، هو الحسن بن عبد الله بن أحمد بن عبد الجابر بن أبي حصينة وهو غزير القريحة، كثير الشعر مجيد بليغ...". انظر: ابن العديم: بغية الطلب، جـ٥، ص٢٤١٨-٢٤٢١.

[٤٠]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٤، ص١٩٣٠.

[٤١]- وصف ابن العديم الرئيس أبو تراب حيدرة - نقلًا عن أسامة - بقوله: "...موسى رجل عالم قد خاض في كل العلوم، ونال منها حظًا جسيمًا، وبرز في قراءة القرآن وعلومه، ولم يكن مشتهرًا بالشعر، وكان أقل فضائله، وليس هو من أهل الشام وإنما ورد إليه من الشرق خاطرًا فتمسك به والدي أبو سلامة مرشد بن علي رحمه الله، وترك له ما اقترح، وقرأ عليه القرآن والنحو وعلم النجوم، وكان هذا الرجل يعرف بابن قطرميز...". انظر: ابن العديم: بغية الطلب، جـ٦، ص٣٠٠٩-٣٠١١.

[٤٢]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٣، ص١١٥٨-١١٥٩.

[٤٣]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ١٠، ص٤٣٣٢-٤٣٣٣.

[٤٤]- لمزيد من التفاصيل عن هذه التراجم انظر: ابن العديم: بغية الطلب، جـ٢، ص٧١٦-٧١٩، جـ٣، ص١١٥٨، جـ٥، ص١١٥٨-١١٥٩، ٢٢٧٨-٢٢٧٩، جـ٦، ص٣٠٠٩-٣٠١٣، جـ٩، ٤١٤٦-٤١٤٩.

في ترجماته على إظهار طبقات الشعراء والطبقات المعارضة لطبقاتهم[٤٥]، وقد خلا أسلوبه من السجع المتكلف الذي غلب على أسلوب كل من الأصفهاني والقاضي الفاضل. ولا شك أن غياب هذا الكتاب حرم المكتبة العربية من مصنف قيّم لأديب متمرس ومعاصر عن شعراء بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية.

ولم تقف مُصنفات أسامة التي عنت بجمع الشعر عند هذا الحد، وإنما كانت له مُصنفات أخرى لم يُهتد سوى لأسمائها، من ذلك إشارة الصفدي باسم "مجموع أشعار المُحدثين"[٤٦] وهو قريب من كتاب آخر ذكره المقريزي باسم "المختار من محدث الأشعار" الذي ترجم فيه لمعاصريه من الشعراء. وذكر له المقريزي كتاب "المنتخب من أشعار العرب"، فضلًا عن كتاب "اختيار شعر أبى تمام"، وكتاب "المماثلة في الشعر"، وكتاب "الأقسام في الشعر" أيضًا، وكتاب "معونة المساعد على حصر الشواهد"، وكتاب "زور أبي العلاء" وكتاب "مختار شعر أبي نواس"[٤٧]. ولم يقف الباحث سوى على عناوين تلك المصنفات لأن المصادر ضنت بأي تفاصيل عنها واكتفى المقريزي بنسبتها إلى الشعر.

وقد نقل ابن العديم عن أسامة بن منقذ كثيرًا من رواياته في ترجمته لبعض شعراء مصر والشام والعراق ولكنه لم ينسبها إلى أي من مصنفاته أو مجاميعه وذلك بالرغم من نقده لبعض ما نقله عن أسامة[٤٨]. ومما نقله ابن العديم عن أحد مصنفات بني منقذ غير المعنونة ترجمة لزرعة بن موسى الكاتب عن أحد المجموعات الشعرية غير المعنونة واكتفى بنسبتها إلى أحد بني منقذ في شيزر[٤٩]، وهذا يعني أنها ظلت باقية حتى بعد مُضي قرن على زوال نفوذ بني منقذ عن شيزر وأن المقريزي وقف عليها وأفاد منها.

ولكن من الصعب نسبة هذا المجموع إلى أي من بني منقذ على وجه التحديد؛ لأن غالبية بني منقذ برعوا في صناعة الشعر، وكان لدى كثيرين منهم ولع بجمعه ومدارسته؛

---

[٤٥]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٩، ص٤١٧٢-٤١٧٥.
[٤٦]- الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ٨، ص٣٨٢.
[٤٧]- المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٩.
[٤٨]- انظر: ابن العديم: بغية الطلب، جـ٢، ص٨٧١-٨٧٢، جـ٥، ص٢٤١٨-٢٤٢١، جـ٧، ص٣٣٥٧، جـ٨، ص٣٧٩١-٣٧٩٢.
[٤٩]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٨، ص٣٧٩١.

حيث كان لدى الأمير مرشد بن منقذ – والد أسامة – نزعة جمع أشعار أهل عصره وتدوينها بخطه الجميل، وقد سبقت الإشارة إلى نقل أسامة بعض مواد تراجمه عن والده الذي دفعه شغفه بالأدب وأهله إلى رفض الإمرة بالرغم من وصية أبيه بتقليده الإمرة بعد وفاته قائلًا قولته المشهورة: "...والله لا وليتها ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها"[٥٠].

وقد نقل ابن العديم أيضًا بعض مواد تراجمه عن مجموع شعري صنفه أحد أبناء أسامة يرجح أنه مُرهف الذي خلف أباه في الاهتمام بالنواحي الأدبية، وهو مجموع فيه شعر لبعض الشعراء من مدينة معرة النعمان[٥١]. وحصل ابن العديم أيضًا على مجموع آخر نسبه إلى أهل شيزر بعامة ولم يُحدد مصنفه[٥٢]، ونقل عن مجموع آخر نسبه إلى محمد بن مرهف بن أسامة بن منقذ[٥٣] عن بعض شعراء الشام. وعلاوة على ذلك فقد نقل ابن العديم في ترجمته لسالم بن هبة الله بن علي بن المبارك عن مجموع آخر للأمير منقذ بن مرشد "...ووقع إليَّ جزء بخط أبي المغيث بن مرشد بن علي بن مقلد بن منقذ جمع فيه كتبًا وردت إلى والده أبي سلامة مرشد من جماعة كاتبوه، وفيه صدر كتاب من الشريف أبي المجد سالم هذا، فنقلت ما ذكره من هذه المكاتبة فهو:

وأدنيتني حتى إذا مـــا ملكتني بقول يُحل العصم سهل الأباطح

تجافيت عني حين لا لي حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح"[٥٤]

ويُعدُّ ما نقله ابن العديم عن تلك الكتب والمجموعات الشعرية – بخلاف ما أشار إليه بعض من ترجم لبني منقذ في حديثهم عن المصنفات والمجاميع – تأكيدًا لسيادة الاهتمام بالشعر لدى بني منقذ بالرغم من الاقتصار على جمعه وتبويبه وترتيبه، ودليلًا على

٥٠- ابن الأثير: (علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري ت: ٦٣٠هـ/١٢٣٢م): الكامل في التاريخ، عنى بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء، جـ٩، ط٥، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٥٤؛ أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ت:٦٦٥هـ/١٢٦٨م): الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق: محمد حلمي أحمد، مراجعة: محمد مصطفي زيادة، جـ١، ق١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٢٨١.

٥١- ابن العديم: بغية الطلب، جـ١٠، ص٤٧٠٢.

٥٢- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٨، ص٣٧٩٢.

٥٣- لم أقف له على ترجمة نعرف منها تاريخ وفاته ولكن من الراجح أنه توفي بعد وفاة أبيه أي بعد عام ٦١٣هـ.

٥٤- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٩، ص٤١٧٣.

كثرة ما ضاع من تراث هذه الأسرة من مصنفات أدبية معنية بالترجمة للأدباء بعامة والشعراء بخاصة.

ولم يكن إنتاج بني منقذ الأدبي في مجال النثر بأقل من إنتاجهم الشعري، سواء مُصنفات أم رسائل نثرية أشارت إليها بعض كتب التراجم والمجموعات الشعرية، ومرة أخرى فإن أسامة أحرز قصب السبق في إنتاجه النثري أكثر من غيره من بني منقذ. وقبيل معالجة مصنفاته في هذا المضمار فإنه ينبغي التنويه إلى أهم اتجاهات التصنيف الأدبي النثري آنذاك؛ إذ اتجه بعض الأدباء إلى لون من ألوان الأدب المتصل بمكارم الأخلاق، جامعًا الحكم والأمثال وآراء المفكرين، واضعًا نصب عينيه جمع ما تشابه من النظائر وما اتصل بالخُلق الواحد بعضه إلى جوار بعضه الآخر[٥٥].

وقد سلك أسامة في مُصنفاته النثرية التوجه ذاته على ما يلمس في مُصنفاته المنشورة، وهو ما يرجح قيامه بذلك في مُصنفاته التي لم يُهتد بعد إلى مظانها ولم نعرف عنها سوى عناوينها وبعض الإشارات التي نقلتها بعض المصادر عنها.

ولأسامة في ذلك الدرب من الآداب كتاب "المكارم والكرم ورعاية الذمم"[٥٦] الذي ربما يتماشى في مادته ومنهجه مع مُصنفات أسامة سالفة الإشارة، وللأسف لم تُزودنا المصادر المعاصرة – وبخاصة المقريزي الذي انفرد بالإشارة إلى الكثير من مصنفات أسامة – بأكثر من اسمه.

ويُعد كتاب "التأسي والتسلي من المراثي والتعازي" من مُصنفات أسامة المهمة، وقد أشار أسامة إلى الكتاب في إحالته لقارئ لباب الآداب إليه لمن يروم الاستزادة عن المراثي والتعازي وما يتعلق بها أكثر من مرّة، فأشار إليه في المرّة الأولى في نهاية فصل الصبر بقوله: "...قلت وبالله التوفيق: قد أوردت في كتابي المترجم بكتاب التأسي والتسلي...من ذكر الصبر ما ورد فيه في الكتاب العزيز والأحاديث المرفوعة وشيئًا من أقوال الحكماء ومن الأشعار والأخبار، فغنيت عن الإطالة فيه في كتابي هذا، فأوردت فيه هذا الفصل مُختصرًا،

[٥٥]- أحمد بدوى: الحياة الأدبية، ص٣٨-٣٩.
[٥٦]- المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٩.

وإن كان الصبر الأدب الذي يبدأ به العاقل وإليه يضطر الجاهل وهو كمال في الدنيا وأجر في الآخرة، حجاب عن الشمات، عون في النائبات، ولو لم يكن من فضله إلا أن الله سبحانه أوصى به رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آل وصحبه رضوان الله أجمعين"[٥٧].

وعاد أسامة للإشارة إلى الكتاب ذاته مرة أخرى في فصل المراثي من كتابه "لباب الآداب" ليقول عنه ثانية "...ما رأيت أن أخلي هذا الباب من ذكر شيء من المراثي فذكرت هذه النبذة منها، وقد أوردت في كتابي المترجم بكتاب التأسي والتسلي من المراثي والتعازي ما غنيت به عن الإطالة ها هنا..."[٥٨].

وفضلًا عن ذلك فقد أشار المقريزي إلى ذلك الكتاب ولكنه لم يُشر إلى مادته ولا إلى منهج مصنفه في تصنيفه[٥٩]، ويُرجح الباحث أن يكون الكتاب صورة مُوسعة لفصل بليغ المراثي الذي ورد في "لباب الآداب" الذي تضمن بعض أشعار القدامى مثل علي بن أبى طالب – كرم الله وجهه – والحارث بن حلزة وغيرهما، كما نقل بعض أشعاره عن الأصمعي. وقد أورد أسامة اختياراته من التراث العربي دون أن يُعلق عليه، ورجح حسن عباس قيام أسامة بتصنيف هذا الكتاب مُتأثرًا بما حدث لأهله من موت غالبيتهم مدفونين تحت أنقاض قلعة شيزر عقب زلزال عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م[٦٠]، وقد سبق ورثاهم أسامة في كتابه المنازل والديار.

ولذا لا يستبعد الباحث أن يكون منهجه فيه على غرار منهجه في كل من "المنازل والديار" و"لباب الآداب"، وذلك بإيراد بعض آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والمأثور من أقوال الحكماء وأشعار العرب وأخبارهم ومراثيهم. كما رجح محمد عدنان قيطاز اعتماد أسامة بن منقذ في ذلك الكتاب على منهج التطويل إيفاءً للغرض الذي صنفه من

---

[٥٧]- أسامة بن منقذ: لباب الآداب، ص٢٩٤.
[٥٨]- أسامة بن منقذ: لباب الآداب، ص٤١٠.
[٥٩]- المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٨.
[٦٠]- حسن عباس: أسامة بن منقذ، جـ٢، ص٥٥-٥٦.

أجله[٦١]، ويرجح الباحث تضمن الكتاب فصولًا في التأسي والتسلي والصبر وما سوى ذلك على ما ورد في كتاب لباب الآداب[٦٢].

ومن مُصنفات أسامة بن منقذ النثرية الأخرى التي لم يُهتد إلى مظانها كتاب "الشيب والشباب" وهو من مُصنفاته المبكرة أيضًا والتي صنفها لأبيه الذي تُوفي عام ٥٣١هـ/١١٣٧م[٦٣]، وهذا يعني أنه وضع الكتاب قبل هذا التاريخ وكان وقتها يتردد على قلعة شيزر من وقت لآخر، وقد تخطى وقتها الأربعين من عمره وبات على أعتاب الشيب ومفارقة الشباب، وبالتالي ارتباط الكتاب بالمرحلة العمرية التي كان يمر بها أسامة، مما يرجح تضمن الكتاب الكثير من الإسقاطات المرتبطة بأسامة وتجاربه، ويبدو أن الكتاب تضمن كثيرًا من الأشعار التي نُظمت في الشيب والشباب.

وقد أوضح أسامة عوامل تصنيفه له وذلك ليُعارض به كتاب "الشهاب في ذكر الشيب والشباب" للشريف المرتضى، ولم ينس أسامة الإطراء على ذاته بأن الفضل للمقدم في البيان وليس المتقدم في الزمان "...قلت: ما رأيت أن أخلي هذا الباب من شعر في ذكر

---

[٦١]- محمد عدنان قيطاز: أسامة بن منقذ، ص٧٥.

[٦٢]- ينهض كتاب لباب الآداب بمهمة الإصلاح الخلقي والتوجيه السياسي، وقد ألفه أسامة لعامة الناس مُرتبًا إياه على سبعة أبواب في الوصايا، والسياسة، والكرم، والشجاعة، والآداب - ويحوى خمسة عشر فصلًا - والبلاغة والحكمة، وأورد أسامة في كل هذه الأبواب ما تعلق بموضوع الباب من الآيات القرآنية والأحاديث وآراء الفقهاء وكبار الصحابة والتابعين والقادة، ثم عرج على حكم الحكماء والأقوال المأثورة، علاوة على الأخبار والمرويات والأشعار. ويتضح من مُطالعة الكتاب سر تسميته "لباب الآداب" أي الفضائل والأخلاق التي يتجمل بها الناس، فهي بمثابة خلاصة في الفضائل التي عالجها وتذكرة ضخمة حوت مادة اختيرت اختيارًا جيدًا، ورُتبت ترتيبًا ييسر الوقوف عليها عند الحاجة إليها، وعمد أسامة إلى إحالة قارئه لمُصنفاته الأخرى التي تختص بأحد الأبواب التي اضطر إلى اختزالها، وفي خضم ذلك لم يربط بين مادته بخالص أسلوبه تعليقًا أو شرحًا أو نقدًا، إلا قليلًا، تاركًا قارئه يقوم بذلك، مقتصرًا على الاختيار الجيد لمادته.
ويلحظ القارئ بين الأسطر أمرين أساسيين، ربما كانا الهدف من تصنيف الكتاب، ويبدو أنهما نبعا من ظروف العصر، وهما: حثه على ضرورة التخلق بمكارم الأخلاق لأنها أساس قيام الشعوب، وما أحوج البلدان الإسلامية آنذاك إلى إدراك ذلك، أما الأمر الثاني فممثل في الدعوة إلى الجهاد وذلك ما يتضح من حثه المتكرر على العودة إلى الدين وإلى انتصارات المسلمين وأمجادهم، فكم من محنة واجهتهم وكم من مشكلة عرقلت مسيرتهم، ولكنهم تغلبوا على كل ذلك في النهاية، ولكن بالخلق الكريم وليس بالعنف والقوة.
وقد تحدث فيه أسامة بن منقذ عن سياسة الملوك واعتنائهم بالجيوش، وسياسة الرعية وكيفية الحفاظ على الملك، واستعان في توضيح وجهة نظرة بما أورده من الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية، وآراء الساسة والفقهاء وعلماء الدين، وحكماء الهند والصين والفرس، والمرويات التاريخية وغيرها، بيد أنه لم يعلق على مادته، وقليلًا ما أسقط عليها شيئًا من ظروف عصره وآراء معاصريه، ولذا فقد غلب على مادته الإطار التنظيري. انظر: أسامة بن منقذ: لباب الآداب، تحقيق: أحمد شاكر، القاهرة، ١٩٣٥، ص٣٥–٧٢. وأيضًا: حسن عباس: أسامة بن منقذ: جـ٢، ص٤٣-٤٨. محمد سيد كيلاني: الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام، ط٢، دار الفرجاني، القاهرة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٢٠١.

[٦٣]- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، جـ٢، ص١١٠.

الشيب، فذكرت هذه الأبيات مُختصرًا فإنني أفردت لذكر الشيب والكبر والشباب أيضًا كتابًا ترجمته بكتاب "الشيب والشباب" اشتمل على كثير مما يُتطلع إليه من هذا النوع، فغنيت به عن الإطالة هاهنا، فمن وقف عليه من الفضلاء عرف ما بينه وبين كتاب الشهاب في ذكر الشيب والشباب تأليف المرتضى رضي الله عنه، وعلم أن الفضل للمقدم في البيان لا في التقدم في الزمان"[٦٤].

وقد قدّم المقريزي وصفًا موجزًا لمادته بقوله: "...وكتاب الشيب والشباب ذكر فيه الخضاب (أي الحناء) وما جاء فيه، ورتبه على سبعة أبواب، في كل باب فصول وكتاب مُلحق به سماه استدراك المرتاب..."[٦٥]. والكتاب على هذه الخطة شبيه بخطة كتاب لباب الآداب ومنهجه[٦٦]، وقد نبهنا المقريزي إلى كتاب "استدراك المرتاب" الذي جعله أسامة مُلحقًا بالشيب والشباب[٦٧] ربما استدراكًا لأمر فاته وبخاصة في ظل وجود كتاب الشريف المرتضى الذي عارضه أسامة بن منقذ بحيث "...يدفع عنه كل مأخذ أو شبهة أو ارتياب في صدور الذين قد يزعجهم ترجيح كتابه على كتاب الشريف المرتضى..."[٦٨]. وقد بلور أسامة فلسفته بعدئذ في مسألة الشيب عبر مُصنفاته الأخرى سواء الشعرية أم النثرية[٦٩].

وثمة مُصنفات أخرى وضعها أسامة ويرجح اندراجها ضمن المُصنفات الأدبية من واقع اسمها، خصوصًا أنه لا يوجد من نصوصها ما يُشير إلى مادتها أو منهج أسامة في تصنيفه لها، وتتمثل تلك المُصنفات في: كتاب "الحنين إلى الأوطان" وكتاب "الإشارة" وكتاب "المحاسن"، وكتاب "نزهة الناظر في إملاء الخاطر" وكتاب "الفرق ما بين المحبة والهوى" وكتاب "ضربة الولاء"[٧٠]، وكتاب "المماثلة في الشعر"، وكتاب "معونة المساعد على حصر الشواهد"، وكذا كتاب "الأقسام" وهى من الكتب التي لم يُهتد بعد إلى مظانها. وقد أشار

---

[٦٤]- أسامة بن منقذ: لباب الآداب، ص٣٧٧.
[٦٥]- المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٨.
[٦٦]- أسامة بن منقذ: لباب الآداب، ص٣٥–٧٢. وأيضًا: حسن عباس: أسامة بن منقذ: جـ٢، ص٤٣-٤٨. محمد سيد كيلاني: الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي، ص٢٠١.
[٦٧]- المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٨.
[٦٨]- محمد عدنان قيطاز: أسامة بن منقذ، ص٧٤.
[٦٩]- أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص١٦٠؛ أسامة بن منقذ: لباب الآداب، ص٣٧٥؛ الأصفهاني: خريدة القصر، جـ١، ص٥٠٣-٥٠٥، ٥٣٨-٥٤٠.
[٧٠]- المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٨-٤٩.

المقريزي إلى أنها من المُصنفات الشعرية[٧١]. ولا ريب أن الظفر بمثل هذه الكتب سيسد فراغًا كبيرًا في المكتبة العربية سواء في الشعر أم في البلاغة[٧٢]، نظرًا لافتقار التراث العربي إلى أمثال تلك الكتب التي عاصرت القرنين الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، وتحمل قدرًا كبيرًا من فكر رجاله ورؤيتهم آنذاك.

وثمة ملحوظة مهمة تبرز من دراسة مُصنفات أسامة بن منقذ في مجال النثر وممثلة في موسوعية أسامة وسيطرته على إيقاع التصنيف، بحيث تحولت بعض فصول مُصنفاته إلى مصنفات قائمة بذاتها والعكس، بمعنى أنه حينما عالج موضوعات مثل التأسي والتسلي، والصبر والشيب والشباب والرثاء والظلم بصفتها عناوين فصول في كتابه لباب الآداب، فإنه لم يستطرد في عرضها واكتفى بإشارة عابرة إليها، ثم أحال قارئ لباب الآداب إلى مصنفاته التي عالجت تلك القضايا باستفاضة وعلى نحو مستقل مثل كتب: "التأسي والتسلي من المراثي والتعازي" و"النوم والأحلام" و"رَدْع الظّالم وَرَدّ المَظَالم"، وكذا فعل في كتابه المنازل والديار في حديثه عن الرثاء بإحالة قارئ كتابه إلى كتابه "أخبار النساء" كي لا يستطرد في ذلك، وكذا فعل في كتابه الاعتبار في حديثه عن الرؤى بإحالة الباحث عن الاستطراد إلى كتابه "النوم والأحلام".

ولعل من العوامل التي ساعدت الباحث على الوقوف على ذلك التصور عدم ضياع كتب المنازل والديار ولباب الآداب والاعتبار والعصا، وفيها وقفنا على إحالات أسامة إلى

---

[٧١]- المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٩. وقد نسب بعض المؤرخين المحدثين إلى أسامة بن منقذ كتابًا بعنوان "البشارة" بيد أنني وبعد مراجعة المصادر لم أقف على ما يُشير إلى نسبة هذا الكتاب إلى أسامة بن منقذ. انظر: محمد عدنان قيطاز: أسامة بن منقذ، ص٨٧؛ بتول كامل مزهر الياسري: الجغرافيون والرحالة العرب في بلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين/القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة سانت كلمنتس العالمية، بغداد، ٢٠١٤م، ص١٢٨-١٢٩؛ عبد الحميد الفراني: "القيمة العلمية لروايات ابن منقذ الشفوية في كتابه الاعتبار"، ضمن كتاب بحوث المؤتمر العلمي: التاريخ الشفوي، الواقع والطموح، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، مايو، ٢٠٠٦م. جـ١، ص٣٦٤.

[٧٢]- تعدى أسامة في مُصنفاته الأدبية حد الشعر قرضًا وجمعًا - ناهيك عن المُصنفات النثرية - إلى الاهتمام بالبلاغة، كأحد فروع الأدب المتداولة واللازمة لمن يهتم بالشعر والنثر، ويبدو أنه أبدع في ذلك الفرع بدلالة كتابه "البديع في نقد الشعر" الذي يُعد واحدًا من أهم المُصنفات التي يُعتد بها في دراسة البلاغة حتى الوقت الراهن، وتأثر أسامة في تصنيفه لكتاب البديع في نقد الشعر بكتاب أستاذه ابن المنيرة الذي يحمل الاسم ذاته، بحيث قام أسامة بجمع ما تفرق من ألوان البديع في مُصنفات العلماء الذين تقدموا عليه وزاد فيها حتى بلغت خمسة وتسعين نوعًا. انظر: أسامة بن منقذ: البديع في نقد الشعر، تحقيق: أحمد أحمد بدوى، طبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٠م؛ أسامة بن منقذ: لباب الآداب، ص٣٢٨-٤٢٠.

مصنفاته الأخرى، ولأننا لم نقف على بقية مُصنفاته التي لم يُهتد بعد إلى مظانها فيُرجح إتباع أسامة الأسلوب ذاته في عرضه لها، وفي ذلك سيطرة على إيقاع التصنيف لدى أسامة وترتيبه لأفكاره، ودلالة على قوة ذاكرته التي ساعدته على الربط بين أفكاره وقضاياه في مُصنفاته المختلفة والمتنوعة.

التأريخ والكتابة التاريخية

تعددت مصنفات بنو منقذ التي وضُعت في التاريخ وحقق بعضها شهرة عالمية واسعة على غرار كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ؛ بخلاف مُصنفات أخرى كثيرة نتجت عن توارثهم لتدوين أحداث التاريخ المعاصر لهم والسابق عليهم بداية من التأريخ للمؤسس الأول للأسرة في شيزر الأمير مقلد بن علي بن منقذ (ت: ٤٥١هـ/١٠٥٩م) ووصولًا إلى مرهف بن مرهف بن أسامة بن مرشد (نهاية القرن السابع الهجري)[٧٣].

ويمكن الوقوف على ملامح ذلك الاهتمام من كثرة المُصنفات التاريخية التي وُضعت عن أحداث عصرهم، مما جعلهم مصدرًا للرواية لدى بعض مؤرخي تلك الحقبة، وبخاصة الأصفهاني وابن الأثير وابن شداد وابن العديم وأبو الفدا وابن الفرات وغيرهم. وقد يعلل ذلك بقضاء أفراد الأسرة وقتًا طويلًا في قلب بلاد الشام سواء قبيل حكمهم لإمارة شيزر أم خلال إمرتهم لها أم بعد زوال نفوذهم عنها، الأمر الذي أوقفهم على أحداث شمال بلاد الشام والمنطقة المحيطة بإمارتهم عن قرب، وبخاصة أنهم تقربوا من سلاجقة العراق والشام وترددوا على الخلفاء العباسيين في بغداد[٧٤]، وربطتهم أواصر صداقة قوية بكثير من مُحركي السياسة الشامية سواء مسلمين أم صليبيين بعد استقرارهم في الشرق وباتوا جيرانًا لهم في أنطاكية وطرابلس. ولا شك أن الحصيلة المعلوماتية الكبيرة لأوائل بني منقذ الذين كانوا شهود عيان لكثير من أحداث تلك الحقبة في الدوائر المحلية والإقليمية قد وفرت للمتأخرين مادة خصبة للكتابة والتصنيف في التاريخ وأحداثه.

[٧٣]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٤، ص١٨٠٨.
[٧٤]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٦، ص٢٦٨٤-٢٦٨٥.

ويُعدّ علي بن مرشد ممن حرصوا على التدوين التاريخي، وله في ذلك التاريخ الموسوم بـ "البداية والنهاية في التاريخ"، وكما يتضح من عنوان الكتاب واستنادًا إلى النصوص الكثيرة التي نقلها ابن العديم عنه أنه كان تاريخًا شاملًا، وإن كان من الصعب تحديد بدايته ونهايته على وجه الدقة؛ فوفقًا للنصوص التي نقلها ابن العديم فقد عاد علي بن مرشد بالأحداث إلى أيام الدولة الحمدانية وبعض أخبار سيف الدولة الحمداني، وعلى الرغم من عدم وجود ما ينفي أنه عاد بتاريخه إلى بداية الخليقة أو يثبته فإن منهج كتابه – على ما يتضح من النصوص المنقولة عنه – يتماشى مع خطط المُصنفات الحولية؛ فلم تقتصر النصوص التي نقلها ابن العديم عن الكتاب على أحداث بلاد الشام وحدها، وإنما اهتم بالترجمة لأحداث مصر وغيرها في أكثر من مناسبة.

وتتمثل أهمية الكتاب في كونه الحجة الوحيدة أحيانًا لدى ابن العديم في تأريخه لبعض الأحداث أو في عرضه لبعض التراجم حتى وإن اختلف معه ابن العديم وناقش رواياته وانتقد بعضها[٧٥]. ولكنه كثيرًا ما عاد إليه في الحادثة الواحدة أكثر من مرة، مما يُشير ضمنًا إلى أهمية الكتاب في التأريخ للنصف الثاني من القرن الخامس والثلث الأول من القرن السادس الهجري، حيث نقل عنه ابن العديم الكثير من الأحداث التي لها علاقة بمنطقة نفوذ بني منقذ ووجودهم في شيزر وعلاقتهم بالقوى المجاورة وبخاصة الدولة المرداسية في حلب وملامح العلاقات بين بني منقذ والفاطميين[٧٦]، والوزير السلجوقي نظام

---

[٧٥]- انظر في ذلك: ابن العديم: بغية الطلب، جـ٢، ص٨٧١-٨٧٢.

[٧٦]- جاء في رواية علي بن مرشد التي نقلها ابن العديم قوله: "... نقلت من خط أبي الحسن علي بن مقلد بن علي بن منقذ في تاريخه، وذكر أحوال سابق بن محمود بن نصر بن صالح بن مرداس، وضعف أمره وقال في أثناء كلامه: والأمير سديد الملك مُقيم بالجسر لعلمه أن الداء قد أعضل، وكان سبب ذلك أن الأمير بهاء الدولة بن الملك فناخسرو، وهو خاله، قد نزل من مصر لما تولى ابن أخته حلب، كانت جاريته قد اعتقلها أمير الجيوش بدر بمصر، وأراد يضرب رقبتها لأنها كانت أوفى طبقة في الغناء، فكان الأمراء بمصر يتقاتلون عليها، فقتل من أجلها عدة من الأمراء، فقال لسابق: ما يقدر أحد يخلص جاريتي وأولادي إلا الأمير سديد الملك، فإنني رأيت له بمصر صيتًا وافيًا وقال من بها: لو كان جعل مقره بمصر عوض طرابلس كانت الدولة في قبضته، فثقل على الأمير إلى أن كتب وسير إلى أمير الجيوش في أمر الجارية، فقال: والله ما أردت أخرجها أبدًا من الحبس، ولكني لا أرد مسألة ذلك المحتشم فسيرها إلى طرابلس إلى دار جدي، فأحضرها إلى حلب ومعها ابناها: دارا، وبهمن، فلما حضرت في مجلس سابق أول صوت غنت:

نفسي فداؤك كيف تصبر طائعًا ... عن فتية مثل البدور صباح
حنت نفوسهم إليـــك فأعلنوا ... نفسًا يقـــد مسالك الأرواح
وغدوا لراحهم وذكـــرك فيهم ... أذكى وأطيب من نسيم الراح
فإذا جرت حببا على أقداحهم ... جعلوك ريحانا على الأقداح

ثم قامت وقبلت الأرض وقالت: يا أمير أبو الحسن أنا مصطنعتك وكذلك أولادي، فتخيل مولاها وخاف أن يكون الأمير أبو الحسن يخرجه من منزله؛ إذ كان يعلم أنه من غير شكله ولا هو من رجال سديد الملك، فاشتغل عنهم بحصنه وبلدة كفر طاب يشتو بالجسر ويصيف بكفر طاب إلى أن غلب سابق واستحكم بأسه، وهذه الحكاية لا تتعلق بالملك العزيز بل بابنه وكتبت سهوا وهي مما ينبغي أن يكتب في ترجمة سديد الملك علي بن منقذ..." انظر: ابن العديم: بغية الطلب، جـ٧، ص٣٢٦٣-٣٢٦٤.

الملك[٧٧]، وأسرة بني عمار في طرابلس وخلف بن مُلاعب في أفامية ومسلم بن قريش العقيلي في حلب، وامتداد نفوذ السلاجقة إلى بلاد الشام في كل من حلب ودمشق...الخ، وغيرها من الروايات التي تقدر بحوالي تسع عشرة رواية نقلها ابن العديم[٧٨]. وبالجملة فإنه دوّن تاريخ الفترة التي شارك فيها سديد الملك علي بن مقلد (ت: ٤٧٩هـ/١٠٨٦م) في صناعة أحداث الدولة المرداسية، ثم معالجته للظروف والملابسات التي قامت فيها إمارة شيزر خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

وعلى ذلك تترتب الأهمية الكبرى لذلك المُصنف لما به من تفاصيل أحداث تلك الفترة المهمة من تاريخ بلاد الشام بخاصة والعالم الإسلامي بعامة؛ حينما دلف الصليبيون إلى المنطقة وأسسوا كياناتهم السياسية المعروفة في الشرق الإسلامي، وقد عالجت تلك الروايات التي نقلها ابن العديم أحداث الفترة الواقعة بين عامي ٤٤١هـ/١١٤٧م و٥٣٤هـ/١١٤٠م، ثم توقفت نقول ابن العديم عند عام ٥٣٤هـ/١١٤٠م دون سبب واضح. كما توجد فجوة بين أول نقل وآخر نقل تُقدر بحوالي ثلاثة وتسعين سنة، علاوة على وجود فجوة زمنية أخرى – وإن كانت أقصر – بين آخر نقل وبين وفاة علي بن مرشد تُقدر بحوالي اثنتي عشرة سنة تقريبًا، ولا نعرف إذا كان علي بن مرشد قد توقف عند أحداث هذا العام أم أنه استمر في تاريخه لفترة تالية أم حتى وفاته عام ٥٤٦هـ/١١٥٢م[٧٩].

ويُمثل كتاب "البداية والنهاية" مصدرًا مُهمًا للتاريخ السياسي والاجتماعي والفكري لتلك الحقبة، وتنوعت مصادره طبقًا لزمن الأحداث وطبيعتها، فتارة يأخذ علي بن مرشد شفاهة عن أبيه مرشد بن مُنقذ حينما ولج علي بن مرشد إلى معالجة الفترة التي عاصرها والده وخصوصًا ما سمعه الأمير مُرشد عن والده سديد الملك أو غيره. وأضف إلى ذلك أن الأمير مُرشد كان يملك نسخة من تاريخ أبي غالب همام بن المُهذب المعري وعنه انتقلت

---

[٧٧]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٥، ص٢٥١٤-٢٤٩٧-٢٤٩٨، جـ١٠، ص٤٥٥٥-٤٥٥٦.

[٧٨]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٧، ص٣٢٦٣-٣٢٦٤.

[٧٩]- تتمثل السنوات التي تعرض علي بن مرشد على ما نقل ابن العديم في: ١٠٤٩/٤٤١م، ١٠٥٣/٤٤٥م، ١٠٥٩/٤٥١م، ١٠٥٨/٤٦٠م، ١٠٧١/٤٦٣م، ١٠٧٦/٤٦٨م، ١٠٨٠/٤٧٣م، ١٠٩١/٤٨٤م، ١٠٩٢/٤٨٥م، ١٠٩٤/٤٨٧م، ١٠٩٩/٤٩٢م، ١١٢٢/٥١٦م، ٥٣٤هـ/١١٤٠م، وتعلقت موضوعاتها بمنطقة نفوذ بني منقذ في شمال بلاد الشام سواء داخل شيزر أم خارجها، على غرار: المتنبي وعلاقته ببني حمدان، وأبي العلاء المعري، ومقتل نظام الملك وإرهاصات معركة ملاذكرد، وعلاقة سديد الملك علي بن منقذ بابن النحاس وبني مرداس في حلب، والخلاف بين قسيم الدولة أق سنقر وبين تاج الدولة تتش ومقتل أق سنقر ومسلم بن شرف العقيلي.

إلى أجيال بني منقذ تاليًا، بينما كان يعتمد على المتقدمين عليه، سواء من أهله أم من غيرهم تارة أخرى، حرصًا على إيراد أكبر قدر من مادته.

كما اعتمد على مشاهداته ومشاركته في بعض الأحداث التي رصدها، فضلًا عن النقل الشفهي عن شخصيات لها ثقلها كمبعوث الخليفة العباسي المسترشد(٥١٣-٥٢٩هـ/١١١٩-١١٣٥م) وغيره[٨٠]. ويتسم أسلوبه بالبساطة والبعد عن التكلف والسجع الذي سيغلب تاليًا على بعض أساليب المؤرخين وبخاصة القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني ومن سواهما، كما يدور في الفلك ذاته الذي اعتادت أقلام المؤرخين أن تدور فيه بالتأريخ للدول والإمارات من خلال أروقة القصور الحاكمة ودهاليزها.

وامتدت يد منقذ بن مرشد[٨١] هي الأخرى إلى التدوين التاريخي؛ إذ أشار ابن العديم إلى أحد مُصنفاته التاريخية التي أخذ عنها على نحو ما جاء في نقول ابن العديم "قرأت في تاريخ أبي المغيث منقذ بن مرشد بن منقذ: وفيها يعني سنة ست وتسعين وأربعمائة وثب قوم من الباطنية على جناح الدولة حسين فقتلوه، وذلك يوم الجمعة ثامن وعشرين رجب، وكان ذلك من تدبير أبي طاهر الصائغ وخدمة للملك رضوان، واستولى بعده قراجا على حمص"[٨٢].

وعاد ابن العديم للتاريخ نفسه ونقل عنه رواية متقدمة زمنيًا جاء فيها: "...في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وفيها طلع قوم من أهل أفامية إلى الأفضل يسألونه أن يُولي عليهم سيف الدولة خلف بن ملاعب فنهاهم، وقال: لا تفعلوا وحذرهم من فسقه، فقالوا: نحن نجعل عيالاتنا لنا ليلة وله ليلة، فسيره معهم، ووصل أفامية ليلة الأربعاء الثاني والعشرين من ذي القعدة..."[٨٣]. ونقل عنه رواية ثالثة جاء فيها: "وجدت ذكره في تاريخ جمعه أبو المغيث

---

[٨٠]- لم يهتد الباحث إلى مظان وجود هذا الكتاب، وقد اعتمدت على ما نقله ابن العديم عنه انظر: ابن العديم: بغية الطلب، جـ٢، ص٦٦٧-٦٦٨، ٩٠٤-٩٠٥، جـ٣، ص١٢٥٢؛ جـ٤، ص١٩٧٦-١٩٧٧؛ جـ٥، ص٢٣٣١، ٢٢٧٨-٢٢٧٩، جـ٦، ص٢٥١٤، جـ٨، ص٣٦٧٥-٣٦٧٦.

[٨١]- لم أقف له على تاريخ وفاة ولكن نظرًا لسماع ابن عساكر عنه ووفاة الأخير عام ٥٧١هـ/١١٧٦م فهذا يعني أنه توفي بعد هذا التاريخ. انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٦٢، ص٣٧-٣٨.

[٨٢]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٦، ص٢٨٠٧.

[٨٣]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٧، ص٣٣٥٧.

منقذ بن مرشد بن علي بن منقذ، وذيّل به تاريخ أبي غالب همام بن المهذب المعري، قال فيه: في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة مات القاضي أبو سعيد الحرشي بالرقة رحمه الله، وكان من أفاضل المسلمين، قد جمع الدين والأمانة والصدق، والصيانة والرأفة والكرم"[٨٤].

بيد أن ابن العديم لم يعنون تاريخ منقذ بن مرشد وإن أشار إلى أمر مهم ممثل في أن تاريخ مُنقذ بن مرشد يُعد ذيلًا على تاريخ أبى غالب همام بن المهذب المعري[٨٥]، وهو الآخر في عداد الكتب التي لم يهتد بعد إليها[٨٦]، وإن كان منقذ بن مرشد قد ورثه عن أبيه مرشد بن منقذ. بيد أن ابن العديم نقل عنه نصًا تناول تحركات القرامطة في بلاد الشام عام ٢٩١هـ/٩٠٣م[٨٧]، كما نقل أكثر من نص عن تاريخ منقذ بن مرشد أحدها عالج شكوى ولاة الشام إلى السلطان السلجوقي ملكشاه من جور خلف بن ملاعب أمير أفامية على رعاياه عام ٤٨٣هـ/١٠٩٠م[٨٨]، بينما عرض ثانيها لأحداث عام ٤٨٨هـ/١٠٩٥م والمتعلقة بالأمير خلف ابن ملاعب أيضًا[٨٩]، وترجم في ثالثها للأمير أبو الغنائم حميد بن حامد بن مغيث بن

---

[٨٤]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ١٠، ص٤٤٦٧.

[٨٥]- أشار ابن العديم إلى تذييل منقذ بن مرشد على كتاب همام المعري. انظر: ابن العديم: بغية الطلب، جـ٧، ص٣٣٥٥، جـ١٠، ص٤٤٦٧. ويُعد أبو غالب همام بن الفضل بن جعفر بن علي المهذب المعري (ت:٤٤٩هـ/١٠٥٧م) من أهم مؤرخي القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وتعد أسرة بني المهذب من الأسر المرموقة في معرة النعمان وقد اشتهر منها أكثر من عالم من الفضلاء، وقد اهتم أبو الحسين علي بن المهذب – جد أبي غالب همام الذي ذيل عليه - أحد فضلائهم بتدوين تعليق في التاريخ، وظل تعليقه بعد وفاته عام ٣٨٧هـ/٩٧٧م محفوظًا لدى أسرة المهذب حتى وصل إلى أبي غالب همام الذي حرص على إكمال ما بدأه جد والده فجمع كتابًا في التاريخ جعله تذكرة كتبها مما وجده في التواريخ المتقدمة ومما وجده بخط جد أبيه أبي الحسين وغيره، واعتمد في تدوينه على ما سمعه من بعض من أدركهم من المعريين مثل أبي العلاء المعري وغيره من الشيوخ.

وقد نقل ابن العديم كثيرًا من تراجم كتابه بغية الطلب عن كتاب ابن المهذب، وتعود الموضوعات التي عالجها إلى أحداث النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، بينما يعود بعضها الآخر إلى منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، والكتاب مُرتب ترتيبًا حوليًا، وتعكس النصوص التي نقلها ابن العديم عن كتاب ابن المهذب أنه ركز على ما وقع من أحداث في معرة النعمان وحلب أيام الدولة المرداسية في حلب على يد صالح بن مرداس وولده ثمال وأهم ملامح علاقته بالفاطميين في مصر، وقد أشار ابن عساكر إلى الكتاب وواضعه وجامعه بقوله: " بعث إليَّ أبو المغيث منقذ بن أبي سلامة مرشد بن علي بن المقلد بن منقذ كتابًا كان بخط لأبيه جمعه أبو غالب همام بن الفضل بن جعفر بن علي بن المهذب المعري في التواريخ مما وجده بخط جد أبيه أبي الحسين علي بن المهذب...". انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ١١، ص٤٢٦. وأيضًا: ابن العديم: بغية الطلب، جـ٧، ص٣٣٥٥، جـ١٠، ص٤٤٦٧.

[٨٦]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٦، ص٢٩٦٨، جـ٧، ص٣٣٥٥.

[٨٧]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٢، ص٩٤٢.

[٨٨]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٧، ص٣٣٥٥.

[٨٩]- جاء في الرواية التي نقلها ابن العديم: "...وفيها طلع قوم من أهل أفامية إلى الأفضل يسألونه أن يُولي عليهم سيف الدولة خلف بن ملاعب فنهاهم، وقال: لا تفعلوا وحذرهم من فسقه...". انظر: ابن العديم: بغية الطلب، جـ٧، ص٣٣٥٧.

بن منقذ عام ٤٩٠هـ/١٠٩٦م[٩٠]، وعرض في النص الرابع لأحداث ٤٩٦هـ/١١٠٢م[٩١]، بينما عرض في خامسها لأخرى في عام ٥٣١هـ/١١٣٧م[٩٢].

وهذا يعني أن تاريخ منقذ بن مرشد عالج أحداث بلاد الشام في أواخر القرن الخامس الهجري وحتى عام ٥٣١هـ/١١٣٧م وهو آخر ما وقفنا عليه من نقول ابن العديم عنه ولكن ربما امتد إلى ما بعد ذلك. ويرجح الباحث معالجة تاريخ همام وتذييل مُنقذ بن مرشد له ما ينيف على ثلاثة قرون من تاريخ بلاد الشام، وكما يتضح فإنهما يُعالجان الأحداث على طريقة الحوليات التي غلبت على التدوين التاريخي آنذاك، وقد أشار إحسان عباس إلى رواية منقذ بن مرشد عن أخيه أسامة بن منقذ[٩٣]. وروى ابن عساكر أنه تلقى من منقذ بن مرشد كتابًا جمعه أبو غالب المهذب المعري والكتاب بخط مرشد بن منقذ[٩٤]. علاوة على ما سمعه ابن عساكر مشافهة عن منقذ بن مرشد في ترجمته للأمير نصر بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ "...ذكر لي الأمير منقذ بن مرشد بن منقذ أنه كان جوادًا كريمًا، شجاعًا، صوامًا قوامًا وكان بارًا بأبيه، حسن الفعل معه"[٩٥].

أما مُصنفات أسامة بن منقذ (ت:٥٨٤هـ/١١٨٨م) في التاريخ فكثيرة ولعل ما غاب منها ولم يُهتد بعد إلى مظانها أكثر مما وصلنا ويمكن إجمالها فيما يلي:

– كتاب "تاريخ أيامه" أو "تاريخ أيام أسامة بن منقذ": وكما يتضح من عنوانه فإنه قد يكون كتاب الاعتبار الذي عالج فيه كثيرًا من الأحداث التي عاصرها أسامة بن منقذ وقد أشار إليه ياقوت الحموي واعتمد عليه الصفدي في إشارته إليه[٩٦]، وقد لا يكون إياه، خصوصًا

---

[٩٠]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٦، ص٢٩٦٨.

[٩١]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٦، ص٢٨٠٧.

[٩٢]- جاء في النص الذي نقله ابن العديم ما يلي: "قال فيه: في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة مات القاضي أبو سعيد الحرشي بالرقة رحمه الله، وكان من أفاضل المسلمين، قد جمع الدين والأمانة والصدق، والصيانة والرأفة والكرم". انظر: ابن العديم: بغية الطلب، جـ١٠، ص٤٤٦٧.

[٩٣]- إحسان عباس: شذرات من كتب مفقودة، ص١١٣-١١٤. وقد استنتج إحسان عباس فرضية رواية منقذ بن مرشد عن أخيه أسامة بن منقذ من وقوفه على نصوص ذيل تاريخ المغيث منقذ بن مرشد لدى ابن العديم ودراسته لها. انظر: إحسان عباس: شذرات من كتب مفقودة، ص١٢١-١٢٢.

[٩٤]- ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ١١، ص٤٢٦.

[٩٥]- ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٦٢، ص٣٧-٣٨.

[٩٦]- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، جـ٢، ص١١٠؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ٨، ص٣٨٢.

أن ثمة مُصنفات تاريخية أخرى نُسبت إلى أسامة ولكنها لم تُعنون، بمعنى أن المصادر التي أشارت إليها أخذت عنها وذكرتها تحت مسميات عامة مثل "تاريخ أسامة" أو "تاريخ ابن منقذ" أو "تاريخه" وما إلى ذلك، وهى تُعالج الفترة الزمنية التي عاصرها أسامة مثل إشارة ابن شداد إلى حديث أسامة عن أمراء أنطاكية، وتأكيده انتهاء التاريخ الذي حمل هذه الإشارة في مدة حكم بوهيمند الأول (٤٩٢-٤٩٨هـ/١٠٩٨-١١٠٤م) أمير أنطاكية[٩٧]. ونقل ابن العديم حادثة تاريخية عن أحد مُصنفات أسامة بيد أنه لم يسمها وعالج بها أحداث عام ٤٩٩هـ/١١٠٥م[٩٨]، وأسلوب النص بعيد عن عامية الاعتبار أو استدعاء الذكريات واستخلاص العبر التي كانت هدف أسامة من وضع كتاب الاعتبار، مما يرجح معه أن يكون منسوبًا إلى كتاب "تاريخ أيامه" أو لكتاب آخر عالج تلك الأحداث.

كما نقل أبو شامة في الروضتين عن مُصنفات أسامة التاريخية ومنها ما هو معروف ومنها غير المعروف اسمًا ومضمونًا، وهذا الأخير نقل عنه أبو شامة في تأريخه لعصر صلاح الدين تارة، وفي ترجمته للأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين تارة أخرى[٩٩]، كما نقل أبو الفدا عن أحد مُصنفات أسامة التاريخية – في تأريخه لأحداث عام ٤٧٤هـ/١٠٨١م – ويؤكد أنه نقل أخبار بني منقذ مُحققه عن أسامة، ولذا عاد إلى الكتاب أكثر من مرة في تأريخه للأحداث ذاتها[١٠٠]، كل ذلك يُشير إلى صعوبة إرجاع هذه النصوص إلى كتبها الأصلية، وبخاصة التي لم يحدد نسبتها يقينًا ويدل كذلك على كثرة مُصنفات أسامة التاريخية التي عالجت أحداث عصره.

– كتاب "في أخبار أهله": يُعد من المُصنفات التي يُرجح تداخل مضمونها مع محتويات نصوص الكتاب السابق مما يسوق إلى الإشكالية السابقة، بيد أن ياقوتًا يؤكد أنه رآه بعينه بعد أن أشار إلى الكتاب السابق[١٠١]، مما يعني من جهة أخرى أن كتاب "تاريخ أيامه"

---

[٩٧]- ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، جـ١، ق ١، ص٣٩٨.

[٩٨]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٧، ص٣٣٥٨.

[٩٩]- أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ت:٦٦٥هـ/١٢٦٨م): الروضتين، جـ١، ق١، ص٢٧٨-٢٩٩، جـ١، ق٢، ص٣٥٤-٣٥٥، ٥٨٤-٥٨٥.

[١٠٠]- أبو الفدا (إسماعيل بن علي بن محمود الملك المؤيد صاحب حماة ت: ٧٣٢هـ/١٣٣٢م): المختصر في أخبار البشر والمعروف بتاريخ أبى الفداء، جـ٣، مكتبة المتنبي، القاهرة، (د.ت)، ص٣١.

[١٠١]- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، جـ٢، ص١١٠.

يختلف عن هذا الكتاب، وهو قريب مما نقله أبو الفدا عن أحد كتب أسامة غير المعنونة، ولكنه نقل عنه أخبار بني مُنقذ وكيفية استيلائهم على حصن شيزر ومواجهتهم للمتاعب التي صادفتهم[١٠٢]. وعلى ما ذهب حسن عباس فإنهم كانوا يستحقون أن يُوليهم أسامة عنايته بتصنيف تاريخ يسرد أخبارهم ويرصد أمجادهم[١٠٣]، ولأن أسامة لم يتعرض إلى تلك الأحداث في كتابه الاعتبار – اللهم إن كان قد تعرض لها في المفقود من أول كتاب الاعتبار – فمن الراجح أن يكون كتابًا آخر بخلاف الاعتبار على ما أشار ياقوت الحموي، وعلى ما نقل أبو الفدا في مختصره، وبخاصة مع إشارة الصفدي إلى ذلك الكتاب ضمن مصنفات أسامة بن منقذ[١٠٤]، بينما لم يذكره المقريزي ضمن المُصنفات الكثيرة التي أوردها لأسامة.

– كتاب "تاريخ" هكذا ذكره المقريزي، وأشار إلى محتواه باشتماله على تاريخ الحوادث من أول الهجرة إلى زمن أسامة مُختصرًا[١٠٥]، وهو بخلاف كتاب "التاريخ البدري" الذي سنعرض في المناقب والسير بعد قليل، لأن المقريزي أشار إلى الكتابين معًا ونسبهما إلى أسامة، ولكنه لم يُشر إلى عدد أجزاء هذا التاريخ المختصر الذي يُعالج فترة زمنية طويلة تمتد من الهجرة النبوية إلى المدينة حتى نهاية القرن السادس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

– نقل ابن خلكان مادة تتعلق بعماد الدين زنكي ومولد صلاح الدين في قلعة تكريت عن أحد مُصنفات أسامة بن منقذ وأشار إلى مادته بقوله: "...كما ذكره أسامة بن منقذ المقدّم ذكره في كتابه الذي ذكر فيه البلاد وملوكها"[١٠٦]. وأشار ابن خلكان إلى الكتاب مرة أخرى بقوله: "...وقال أسامة بن منقذ المقدم ذكره في كتابه الذي ذكر فيه البلاد وملوكها الذين كانوا في زمانه: إنه حضر هذه الوقعة مع زنكي في التاريخ المذكور، ذكر ذلك في موضعين أحدهما في ترجمة إربل، والثاني في ترجمة تكريت..."[١٠٧].

١٠٢- أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص٣٠-٣٢.
١٠٣- حسن عباس: أسامة بن منقذ، جـ٢، ص٢٥٦-٢٥٧.
١٠٤- الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ٨، ص٣٨٢.
١٠٥- المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٨.
١٠٦- ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٧، ص١٤٤.
١٠٧- ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٧، ص١٤٢.

ويتضح من الإشارات المقتضبة التي قدمها ابن خلكان عن الكتاب أن أسامة ترجم فيه للبلدان والمدن مثل ترجمته لمدينتي إربل وتكريت وما تعلق بهما من أخبار ملوكهما وحكامهما، وأكده ابن العديم بنقله عن أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي عن مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ قوله: "...تل هراق والراوندان هذان المركزان من أعمال حلب وكان فيهما ولاة الملك رضوان بن تاج الدولة..."[١٠٨]. ولا شك أن أسلوب المعالجة يتفق مع ما أشار إليه ابن خلكان من تأريخ أسامة للبلدان وملوكها في عصره، كما يرجح الباحث غلبة المعالجة الطبوغرافية على الكتاب من خلال المزج بين جغرافية المدن والقلاع وما اقترن بها من أحداث تاريخية في فترة زمنية معينة.

وامتد الاهتمام بتدوين أحداث التاريخ إلى الأجيال التالية لأسامة؛ إذ قام ابنه مرهف (٦١٣هـ/١٢١٦م) بكتابة مدرج علق فيه شيئًا من التاريخ والأحداث قال عنه ابن العديم: "...قرأت في مدرج وقع إليَّ بخط العضد مرهف بن أسامة بن منقذ فيه تعاليق من الحوادث في السنين قال: وفيها – يعني سنة ثمان وخمسمائة، قتل الأخرس ابن الملك رضوان في يوم الاثنين خامس شهر ربيع الآخر..."[١٠٩]. ونقل عنه في موضع آخر ولكن عن أحداث مشابهة قوله: "...قرأت بخط مرهف بن أسامة بن منقذ في مدرج علق فيه شيئًا من التاريخ، قال: فيها قبض بلك على حسان البعلبكي، ونزل على قلعة منبج، وكان فيها عيسى أخو حسان، وعذب حسان أنواع العذاب ليُسلم إليه منبج، فلم يفعل أخوه عيسى وأنفذ إلى جوسلين وأطمعه بتسليم منبج إليه، فجمع جمعًا كثيرًا، وجاء فنصر الله بلكًا عليه، فكسره، وعاد إلى حصار منبج فأصابه سهم في ترقوته فمات، وكان قد جعل سجن حسان في قلعة بالو، فلما قتل بلك نزل ابن عمه داود بن سكمان على بالو فأخذها وأفرج عن حسان، وقيل إن ذلك كان في ربيع الأول"[١١٠]، ونقل عنه أيضًا في موضع آخر جاء فيه: "...نقلت من مجموع بخط ولد أسامة بن مرشد بن منقذ، وقال خواجة بزرك رحمه الله..."[١١١].

---

[١٠٨]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ١، ص٤٧٤-٤٧٥.
[١٠٩]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٤، ص١٩٨٦، جـ٥، ص٢٢٣٤.
[١١٠]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٥، ص٢٢٣٤
[١١١]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٥، ص٢٤٨١.

وذيل ابنه مرهف[١١٢] – ابن مرهف بن أسامة – على مدرج أبيه والذي يحوي بعض الأحداث التاريخية، وتُشير النصوص المنقولة عن المدرج وذيله إلى أنهما يُعالجان بعض أحداث القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وبصفة خاصة أحداث شمال الشام بعامة وفي الترجمة لبني منقذ بخاصة[١١٣]، بل إن الأمر المهم الذي تلمح إليه إحدى الحوادث التي نقلها ابن العديم عن أكثر من واحد من أبناء الأسرة[١١٤] كثرة اعتماده على أمراء بني منقذ ومؤرخيهم في أكثر من جيل – حتى الأجيال التي نمت وترعرعت خارج شيزر – في معالجة ما تعلق بأخبار خلف بن ملاعب أمير أفامية، وذلك في الكتابة عن بعض علاقات بني منقذ بالقوى المجاورة خلال فترة إمرتهم لشيزر.

وهكذا توارث بعض أمراء بني منقذ الميل إلى تدوين الأحداث التاريخية بحيث يمكن رصد أكثر من أربعة أجيال متتالية أغلبها يصب في فرع الأمير مرشد وبنيه، ثم ولده الأمير أسامة بن منقذ وابنه وحفيده، وبالرغم من ذلك فلم نقف لديهم على تاريخ متصل يدون فيه أبناء الأسرة أحداث عصرهم بالتواتر على مدار تلك الأجيال الأربعة. كما يُلحظ اهتمام غالبيتهم بالتأريخ للفترة التي شهدت قيام كيانهم السياسي في شيزر، ولعلهم اندفعوا إلى ذلك من منبع التمسك بأيام مجدهم والتفاخر بها، وهذا لا يعني أنهم لم يدونوا سوى أحداث تلك الفترة لأن غياب مصنفاتهم حرمنا من معرفة ذلك، بينما يمكن تفسير ما قام به بعض المؤرخين والمترجمين من التركيز على تلك الأحداث المتعلقة ببني منقذ والقوى المحيطة بهم في أخذهم عن بني منقذ في كونهم يملكون رواية تاريخية عن أحداث تخص أسلافهم ومن ثم سيكونون مصدرًا مهمًا له الأولوية في التدوين لتلك الحقبة.

[١١٢]- لم أقف له على ترجمة ولكن يرجح وفاته في منتصف القرن السابع الهجري.

[١١٣]- جاء فيما نقله ابن العديم عنهما قوله: "قرأت في تعليق وقع إليّ بخط مرهف بن أسامة بن مرشد بن منقذ، ذيل به على تعليق في التاريخ بخط أبيه مرهف بن أسامة بن منقذ في ما حدث في سنة سبعين وخمسمائة: ولد إسماعيل بن مبارك بن كامل بن منقذ". ابن العديم: بغية الطلب، جـ٤، ص١٨٠٨.

[١١٤]- ابن العديم: بغية الطلب، جـ٧، ص٣٣٥٨-٣٣٥٩.

التراجم والمناقب والسير

أما في التراجم والمناقب والسير فجل ما في هذا الدرب من مصنفات لم يُهتد بعد إلى مظان وجودها فقد صنفها أسامة بن منقذ وتتمثل فيما يلي:

– كتاب "أخبار النساء" الذي أشار إليه أسامة في كتابه "المنازل والديار"[١١٥]، مثلما أشار إليه المقريزي ولكنه كان أكثر إسهابًا من أسامة بحديثه عن الكتاب ومحتواه بقوله: "...وكتاب أخبار النساء، بدأ فيه بحواء، وذكر فيه أم موسى، ومريم ابنة عمران، وأخبارهن، وأمهات العرب والأخوات والزوجات والبنات المنجبات، والنساء التي سادت بذكرهن الأشعار، واستقصى أخبار الجميع وأشعارهن، وما قيل فيهن..."[١١٦]، الأمر الذي يعني اطلاع المقريزي عليه ووقوفه على محتواه ومادته[١١٧].

وفصّل أسامة القول في أخبار النساء التي سارت بذكرهن الأشعار حينما ذكر في كتابه "المنازل والديار" قصة العاشق الذي رثى حبيبته رثاءً حارًا حينما عجز عن الارتباط بها وجزعه بوفاتها في غيابه، وحتى لا يُطيل أسامة في استطراده فإنه أحال القارئ إلى القصة مُفصلة في كتابه "أخبار النساء" على ما جاء في قوله: "...وقد أوردت أخباره مُحققة في "صفراء" في كتابي المترجم بكتاب "أخبار النساء"، فاقتصرت على ما ذكرته ها هنا من شعره..."[١١٨].

وأشار أسامة إلى الكتاب ذاته في كتابه العصا مرتين[١١٩]. ولا غرو فقد أتاح أسامة للنساء مساحة واسعة في كتبه وبخاصة الاعتبار والمنازل والديار وغيرهما وسواء في الجاهلية أم بعد انتشار الإسلام، وتعرض للمشهورات والمغمورات منهن وعرض لأشعارهن وقصصهن دلالة على المكانة الرفيعة التي شغلتها المرأة في أدبيات أسامة بن منقذ[١٢٠].

---

[١١٥]- ابن الفرات (محمد بن عبد الرحيم ت: ٦١٥هـ): تاريخ بن الفرات، تحقيق: حسن محمد الشماع، جـ١، البصرة، ١٩٧٠، ص١٦٦. وأيضًا: حسن عباس: أسامة بن منقذ: جـ٢، ص٢٥٧-٢٥٨.

[١١٦]- المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٨.

[١١٧]- محمد عدنان قيطاز: أسامة بن منقذ، ص٦٦.

[١١٨]- أسامة بن منقذ: المنازل والديار، ص١٦٦.

[١١٩]- أسامة بن منقذ: كتاب العصا، تحقيق: حسن عباس، هيئة الكتاب، فرع الإسكندرية، ط٢، ١٩٨١م، ص٢١٧-٣٠٠.

[١٢٠]- محمد عدنان قيطاز: أسامة بن منقذ، ص٦٦-٦٧.

والكتاب على هذه الصفة يضم تراجم كثير من تراجم النساء المشهورات سياسيًا وأدبيًا وعلميًا انطلاقًا من وعي أسامة بأهمية المرأة ودورها في المجتمع، ويحفل كتابه الاعتبار بكثير من المفاهيم التي تؤكد هذا الوعي على ما جاء في قوله: "...وما يُنكرُ للنساء الكرام الأنفة والنخوة والإصابة في الرأي[١٢١]"، وقوله: "...ولعمري إنهن أمهات الرجال"[١٢٢].

– كتاب "التاريخ البدري": من مصنفات أسامة الضخمة التي تندرج ضمن السير والمناقب أيضًا؛ إذ ذكر فيه مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم وتراجم لبعض من شهد بدرًا، وقد أشار إليه أكثر من مؤرخ[١٢٣]، بيد أن المقريزي انفرد بإيضاح محتوى الكتاب بقوله: "...وله عدة مصنفات منها: كتاب التاريخ البدري ذكر فيه أهل بدر وعدتهم وأسمائهم وأنسابهم وأحوالهم، وذكر فيه مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم وجميع أحواله من أول أمره إلى آخره واستقصى ذلك في خمس مجلدات كبار على حروف المعجم..."[١٢٤]. ويتضح من إشارة أسامة ذاته إلى هذا الكتاب في معرض مقدمة كتابه "مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب" بعض تفاصيل هذا الكتاب لكونه يجمع أسماء من شهد بدرًا من الفريقين[١٢٥].

– كتاب "فضائل الخلفاء الراشدين" وقد أشار إليه أسامة في كتابه "لباب الآداب" خلال حديثه عن أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وأنه تحدث عنه وعن الخلفاء الراشدين في ذلك الكتاب[١٢٦]، كما أشار إليه المقريزي في كتابه المقفى. وهذا يعني أن أسامة بن منقذ كان معنيًا بمعالجة سير الخلفاء الراشدين والترجمة لهم بتوسع كبير سواء قبل

---

[١٢١]- أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص١٢٥.

[١٢٢]- أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص١٢٦.

[١٢٣]- أسامة بن منقذ: مختصر مناقب عمر بن الخطاب، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٥٢٩، تاريخ، ورقم ٢٣٣٤، تاريخ، ورقم ٢٢٣٨، تاريخ تيمور، المقدمة (١)؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٢١، ص١٦٦؛ المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٨.

[١٢٤]- المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٨. وأشار ابن الفرات أيضًا إلى الكتاب. انظر: ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، جـ١، ص١٠٠. وأيضًا: حسن عباس: أسامة بن منقذ: جـ٢، ص٢٥٧-٢٥٨.

[١٢٥]- أسامة بن منقذ: المنازل والديار، ص٥١. وقد أكد محمد عدنان قيطاز أن فيليب حتى لم يوفق حينما عنون هذا الكتاب بـ "التاريخ البلدي" بالرغم مما في ذلك من وهم، مثلما أشار إلى عدم توفيق قمر كيلاني حينما أشارت إلى أن هذا الكتاب من الكتب المُنسوبة إلى أسامة بن منقذ لأنه من مُصنفاته بالفعل. انظر: محمد عدنان قيطاز: أسامة بن منقذ، ص٦٤.

[١٢٦]- أسامة بن منقذ: لباب الآداب، تحقيق: أحمد شاكر، القاهرة، ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م، ص١٧٣.

البعثة النبوية أم بعدها "معددًا أحوالهم وأعمالهم ومشاركاتهم في الغزوات وأيام الردة وفي حركة الفتوح، وما كان لهم من فضائل ومناقب..."[١٢٧].

– كتاب "نصيحة الرعاة": ذكره أسامة باسم "نصيحة الرعاة"[١٢٨] بينما ذكره المقريزي باسم "نصيحة الدعاة"[١٢٩] بتحريف الدال إلى راء والعكس، ويعالج الكتاب علي حد وصف المقريزي لمحتواه بعض مناقب الصحابة – رضوان الله عليهم – وبخاصة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه على ما جاء في قوله: "...وقد كنت أوردت من مناقبه وورعه وحسن سيرته وزهده في كتابي المترجم بكتاب نصيحة الرعاة ما جاء مُفرقًا في أثناء أبواب الكتاب"[١٣٠].

ويبدو مما سبق أن أسامة كان معنيًا بالكتابة في السير والتراجم، والتصنيف في مناقب الرجال، ويُدرج كتابه التاريخ البدري الذي سبقت الإشارة إليه ضمن مُصنفاته في السير، كما سلفت الإشارة إلى وضعه كتابًا في أخبار أهله، بمعنى أنه صنّف في مناقب معاصريه، سواء عن أهله، كما في "أخبار أهله" أم عن ملوك الأرض ممن عاصرهم على ما أشار ابن الفرات[١٣١]. وترجم أسامة للبلدان والقلاع في كتابه "تاريخ القلاع والحصون" و"تاريخ البلدان" في مُدة عمره، وله مُصنف آخر لم يُعرف عنه سوى اسمه ويُرجح اندراجه ضمن مصنفاته في المناقب اعتمادًا على عنوانه وهو "المحاسن"[١٣٢] الأمر الذي يُظهر ولع أسامة بهذا اللون من التصنيف، وتعكس في الوقت ذاته القاعدة الثقافية العريضة لديه التي ارتدت به قصصًا إلى التصنيف في التراجم التي سبقت عصره بما يزيد عن أربعة قرون تقريبًا.

---

[١٢٧]- محمد عدنان قيطاز: أسامة بن منقذ، ص٦٥.

[١٢٨]- أسامة بن منقذ: مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٢٣٣٤، تاريخ، ورقة٣.

[١٢٩]- المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٨.

[١٣٠]- أسامة بن منقذ: مختصر مناقب عمر بن عبد العزيز، ص٣.

[١٣١]- ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، جـ١، ص١٠٠ وأيضًا: حسن عباس: أسامة بن منقذ: جـ٢، ص٢٥٧-٢٥٨.

[١٣٢]- أشار المقريزي إلى كتاب المحاسن بصفته أحد مصنفات أسامة ولكنه لم يشر إلى أي شيء آخر عنه. انظر: المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٨.

المعاجم والمُصنفات الجغرافية

وفي مجال المُصنفات والمعاجم الجغرافية فقد أشار بعض المؤرخين إلى وضع أسامة عدّة مُصنفات في ذلك الفرع من العلوم والآداب، وبالرغم من صعوبة تأكيد انتماء المُصنفات التي اختطها أسامة إلى هذه النوعية من المُصنفات، أو صعوبة البت بتماشيها مع خطتها ومنهجها في معالجة المدن والقلاع والنواحي العمرانية والاقتصادية بسبب فقدان ما تم تصنيفه في هذا المجال؛ فإن النصوص المتبقية عن تلك الكتب تُشير إلى حرص أسامة على المزج بين التاريخ والجغرافيا في وصف المدن والحصون وذلك من خلال وصف المدينة أو القلعة موقعًا وموضعًا، إضافة إلى الإشارة إلى بعض أحداثها التاريخية، ومن أهم ما يُعرف له في هذا المجال المصنفات التالية:

– تاريخ "القلاع والحصون" الذي أشار إليه أبو الفدا في معرض حديثه عن حصني المرقب وبانياس، وفي الوقت الذي وسمه أبو الفدا بتاريخ "القلاع والحصون"[١٣٣] فقد وسمه المقريزي بـ"الديرة والحصون"[١٣٤]، وسواء كانا كتابين أم كتابًا واحدًا فالواضح أن أسامة كان معنيًا بالتأريخ للقلاع والحصون، كمعرفته بمواقعها وحصانتها وأشجارها وزرعها ونقاط قوتها وضعفها والمسافات بينها وبين غيرها من المدن على ما جرى العرف في المصنفات الجغرافية المعاصرة، علاوة على نتف من تاريخها، ولا غرو، فقد جاب أسامة بلاد الشام طولًا وعرضًا، فارسًا محاربًا وعالمًا أديبًا، سواء في المعسكرات الإسلامية أم الصليبية، ومن ثم فقد امتلك القدرة على جمع مادة هذا الكتاب دونما صعوبة.

وتتضح خبرة أسامة وخلفيته بهذا النوع من المعرفة الجغرافية من دراسة إحدى قصائده التي أشار فيها إلى الحملات العسكرية التي قادها نور الدين محمود ضد المدن والقلاع الصليبية في بلاد الشام[١٣٥]، وهي السمة ذاتها التي يلمسها المُطالع لكتاب الاعتبار؛ إذ يكاد يرى صورة دقيقة لجغرافية بلاد الشام في غاباتها، وأنهارها، وجبالها،

[١٣٣]- أبو الفدا: تقويم البلدان، تصحيح وطبع: رينود والبارون ماك كوكين دبسلان، باريس، ١٨٤٠م، ص٢٥٥.
[١٣٤]- المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٩.
[١٣٥]- أسامة بن منقذ: الديوان، ص٢٠١-٢٠٩.

وعناصر مميزة لملامحها الطبوغرافية[١٣٦]، والراجح أن هذا الكتاب ظل معروفًا ويتناوله المؤرخون طوال ثلاثة قرون حتى عصر كل من أبي الفداء والمقريزي[١٣٧]، كما يُؤكد هذا ضرورة البحث بعناية عن هذا المُصنف الذي يحوى تفاصيل عمارة الكثير من المدن والقلاع التي طرأ عليها كثيرًا من المتغيرات بفعل الأحداث السياسية والظواهر الطبيعية وبخاصة الزلازل التي كثرت آنذاك.

– كتاب "أخبار البلدان في مدّة عمره" ويُرجح انتساب ما نقله ابن شداد في حديثه عن بعض المدن والقلاع إلى هذا الكتاب على ما يتضح من النص الذي نقله عنه ابن شداد، وذلك خلال وصفه كلًا من تل هراق والراوندان، بحيث مزج معلوماته الجغرافية ببعض الأحداث السياسية الخاصة بالمكان[١٣٨]، ليضع بصمة أخرى خاصة به في التأريخ للقلاع والحصون، كما رجح حسن عباس انتساب نصوص لدى ابن الفرات والرحالة أبى بكر الهروي (ت:٦١١هـ/١٢١٤م) إلى ذلك الكتاب في كتابه "الإشارات إلى معرفة الزيارات"[١٣٩]، وهى نصوص تتفق – في الغالب – مع مادة ابن شداد، كالإشارة إلى تاريخ بعض البلدان وشيء من عمارتها وآثارها وأهم من حكمها من الملوك والأمراء[١٤٠].

وقد أشار ابن الفرات إلى وقوفه على كتاب صغير لأسامة ذكر فيه من أدركه في عمره من ملوك البلاد، بينما سمع الهروي عن ابن منقذ رواية تفيد بوجود اثني عشر ألف مسجد في مدينة الإسكندرية وحدها[١٤١]. ولا شك أن انتقال أسامة من مدينة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر والتحاقه بخدمة الملوك والسلاطين في بلاد الشام ومصر والعراق قد وفر له خلفية معلوماتية ثرية مكنته من تصنيف هذا الكتاب[١٤٢].

---

[١٣٦]- أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص١٩١-٢٢٦.
[١٣٧]- محمد عدنان قيطاز: أسامة بن منقذ، ص٧١.
[١٣٨]-ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، جـ١، ق١، ص٩٤-٩٥، ٣٩٨.
[١٣٩]- حسن عباس: أسامة بن منقذ، جـ٢، ص٢٥٧-٢٥٨.
[١٤٠]- ابن الفرات: تاريخه، جـ١، ص١٠٠. وأيضًا: حسن عباس: أسامة بن منقذ، جـ٢، ص٢٥٧-٢٥٨.
[١٤١]- الهروي (علي بن أبي بكر الهروي ت: ٦١١هـ): الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٤٧.
[١٤٢]- حسن عباس: أسامة بن منقذ، جـ٢، ص٢٥٧.

النظم والرسوم

صنف أسامة في باب السياسة والرعاية كتابه "رَدْع الظّالم وَرَدّ المَظَالم" وهو من مُصنفاته المهمة والقيمة التي أحال قارئ "لباب الآداب" إليه[١٤٣]، كما أورده المقريزي هو الآخر ضمن مُصنفات أسامة التي لم يُهتد بعدُ إليها[١٤٤]. وعلى ما يبدو من حديث أسامة عنه أنه صنفه ربما لأحد أولياء الأمور في رعاية رعاياه وهو بذلك يقع ضمن كتب الرعاية التي تصنف في باب الكتب السياسية والتي ظلت تصنف فيما بعد حتى العصر المملوكي، ولأن المجال لم يتسع له في كتابه "لباب الآداب" فقد أشار إلى استطراده في ذلك الموضوع في كتابه "رَدْع الظّالم وَرَدّ المَظَالم" على ما جاء في قوله: "قلت: هذا فصل يتعين اتّساع القول فيه لحاجة الناس إلى الكفّ عن الظلم، غير أنّني قد أوردت في كتابي المترجم بكتاب ردع الظّالم وردّ المظالم منه ما غنيت به عن الإطالة في إيراده في كتابي هذا..."[١٤٥].

وقد عاصر أسامة الشيزري أحد رعايا بني منقذ في شيزر الذي صنف لصلاح الدين كتابًا في السياسية والرعاية بعنوان "المنهج المسلوك في سياسة الملوك"[١٤٦]. ويرجح الباحث قيام أسامة بإهداء الكتاب إلى أحد ولاة الأمور الذين عاصرهم ولكن نظرًا لافتقاد تاريخ تصنيف الكتاب فمن الصعب البت في ذلك.

---

[١٤٣]- أسامة بن منقذ: لباب الآداب، ص٣١١.

[١٤٤]- المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٨. لم أقف على الكتاب لدى حاجي خليفة في كشف الظنون.

[١٤٥]- أسامة بن منقذ: لباب الآداب، ص٣١١.

[١٤٦]- هو عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر بن عبد الرحمن أحد رعايا بني منقذ في شيزر، وقد صنف كتاب المنهج المسلوك في سياسة الملوك وأهداه إلى صلاح الدين لإيضاح الخطوط العامة في سياستهم مع رعاياهم ومع أعدائهم في الخارج: "...جمعت لخزانة علومه (يعنى صلاح الدين) هذا الكتاب وهو يحتوى على ظرائف من الحكمة، وجواهر من الآداب، وأصول في السياسة وتدبير الرعية، ومعرفة أركان المملكة، وقواعد فيه على الشيم الكريمة، والأخلاق الذميمة، وأشرت فيه إلى فضل المشورة والحث عليها وكيفية مصابرة الأعداء وسياسة الجيش، وأودعته من الأمثال ما يسبق إلى الذهن، شواهد صحتها ومعالم أدلتها، مع نوادر من الأخبار، وشواهد من الأشعار، وفصلته أبوابًا، تتضمن حكايات لائقة، ومواعظ شافية، وحكمًا بالغة، وسلكت في ذلك كله طريق الاختصار ومذهب الإيجاز، لئلا تمجهُ الخواطر وترفضه الأسماع، وسميته المنهج المسلوك في سياسة الملوك". عن حياة الشيزري ومُصنفاته العلمية انظر: الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: السيد الباز العرينى، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٢ مقدمة محقق الكتاب (ى - ك)؛ الشيزري: المنهج المسلوك في سياسة الملوك، مكتبة المنار، الأردن،ط١، ١٩٨٧، ص١٥٨.

ولأسامة أيضًا كتاب "الإشارة إلى محاسن التجارة"[١٤٧]، ويبدو أنه عالج بعض النواحي الاقتصادية، ونظرًا لأهمية أسامة بصفته رحالة تنقل بين أكثر من مدينة وبلد وميناء، سواء تحت السيادة الإسلامية أم الصليبية، فإن كتابته ستكتسب أهمية خاصة في معالجة أوضاع ذلك العصر الاقتصادية سواء في مصر أم الشام، فضلًا عن قيمتها في إيضاح ملامح العلاقات الاقتصادية بين المجتمعين الإسلامي والصليبي في تلك الفترة، أما إذا غلبت صفة الجمع والتنظير على ما درج أسامة في مُصنفاته الأخرى فسيكون الكتاب مجرد تنظير قليلًا ما دعمه أسامة وطعمه بمادة تخص عصره، وقد أورد حاجي خليفة كتابًا آخر نسبه إلى أسامة بن منقذ بعنوان: "التجاير المربحة والمساعي المُنجحة"[١٤٨]، ويرى قيطاز أنها تسمية أصح وأدق من تسمية المقريزي "التجارة المربحة" دون أن يوضح السبب فيما ذهب إليه[١٤٩].

[١٤٧]- المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٩.

[١٤٨]- حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تصحيح: محمد شرف الدين وبيلكه، جـ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٤١م، ص٣٤٤. بالرغم من إشارة حاجي خليفة إلى هذا الكتاب بعنوان: "التجاير المربحة والمساعي المُنجحة" فإنه لم يشر إلى التسمية الأخرى لكتاب أسامة "الإشارة إلى محاسن التجارة"، ولكن تحمل إشارته تأكيد بأن أسامة قد صنف كتابًا في النواحي الاقتصادية وبخاصة التجارة، ومن المرجح أن يعالج كتابه موضوعات على شاكلة: السلع السائدة والأسعار والنقود وأنواعها وتمييز صحيحها من سواه، وصفة التجار والباعة، وعمليات البيع والشراء، والذهب والفضة وما سوى ذلك من الموضوعات التي يرجح معالجة الكتاب لها أيًا كان عنوانه.

[١٤٩]- محمد عدنان قيطاز: أسامة بن منقذ، ص٨٠. وضع الجاحظ كتابًا بالعنوان ذاته، مثلما وضع جعفر بن علي الدمشقي الذي كان حيًا يرزق عام ٥٧٠هـ/١١٧٥م وعاصر أسامة بن منقذ كتابًا بالعنوان ذاته "الإشارة إلى محاسن التجارة"، وهذا يضعنا في إشكالية كبيرة وبخاصة أن كل من أسامة وجعفر بن علي قد مكثا في دمشق في تلك الفترة ولا ريب في أنهما قد التقيا، ولكن نظرًا لعدم العثور على كتاب أسامة حتى الآن فمن الصعب معرفة العلاقة التي ربطت بين المصنفين ومن ثم الكتابين من عدمه، ومدى التأثر والتأثير بين الرجلين، واحتمالية قيام أحدهما بنسخ كتاب الآخر أو الأخذ عنه أو التأثر بفكرته، حقًا عاش أسامة بن منقذ حتى عام ٥٨٤هـ ولكنه كان شيخًا كبيرًا عام ٥٧٠هـ، وكان له باع كبير في التصنيف آنذاك، بل وسبق له وضع الكثير من المصنفات في الفترة السابقة على قدومه إلى دمشق وقتما كان مُقيمًا في حصن كيفا(١١٦٤-١١٧٤م) وهناك عكف على وضع الكثير من المصنفات المعروفة له قبيل استدعاء صلاح الدين له، وظل بعد قدومه إلى دمشق منشغلًا بالتصنيف، ولذا يظل ترجيح قيام أحدهما بنسخ كتاب الآخر من الأمور الواردة حتى نقف على كتاب أسامة ووقتها ستزول الكثير من الأمور الغامضة. انظر: جعفر بن علي الدمشقي(من علماء القرن السادس الهجري): الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها، تقديم: محمود عبد القادر الأرناؤوط، دار صادر بيروت، ٢٠٠٩م.

الزهــد والتصوف

أما في الزهد فقد وقفت على كتاب لأسامة بن منقذ بعنوان "أمان الخائفين" وقد أشار المقريزي إلى أنه في الزهد[١٥٠] مما يعني بقاء الكتاب حتى عصر المقريزي واعتماده عليه وبخاصة أنه لم يُشر غير المقريزي إلى ذلك الكتاب، وما يزال هو الآخر من بين الكتب التي لم يُهتد بعد إلى مظانها، علاوة على كتاب آخر حمل اسم "مكارم الأخلاق". ويرجح انتماء الكتاب إلى الزهد والتصوف، كما يمكن عدّه فن من فنون الرقائق والذي يرد عن المحدثين والمتصوفة، وكما يتضح من عنوانه فإنه ينتمي إلى نوعية المادة التي يحويها كتاب "لباب الآداب".

بيد أن كتاب "مكارم الأخلاق" أضخم وأكبر من كتاب "لباب الآداب" بكثير لأنه يقع في عشرين مجلدًا، واستغرق أسامه في تصنيفه حوالي عشر سنوات، وهى مدة مقام أسامة في مصر في ظل الفاطميين (٥٣٩-٥٤٨هـ/١١٤٤-١١٥٤م). ولا شك أن تجربته السياسية والأدبية في مصر في خدمة الخلافة الفاطمية والوزراء الفاطميين في تلك الفترة الحرجة قد تركت بصمتها على هذا الكتاب الذي يُعد من أضخم مُصنفاته المعروفة، كما صنفه في فترة مبكرة قبل وضعه لكتاب "لباب الآداب" ذاته لأنه وضع الأخير سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م على ما أشار في نهايته[١٥١]، بينما صنف مكارم الأخلاق في فترة إقامته في مصر في ظل الفاطميين.

تلكم أهم ملامح التراث العلمي والأدبي الذي صنفه بنو منقذ في العلوم والآداب ولم يُهتد بعد إلى مظان وجوده، وقد اجتهدت في البحث عنه في متون المصادر المعاصرة واللاحقة. ومن المرجح أن بني منقذ صنفوا غيره ولكنه فُقد على مر الزمن وربما لم يتم حصره أو الرجوع إليه، ونظرًا لما حاق ببني منقذ من نكبات كثيرة مثل انهيار قلعة شيزر

١٥٠- المقريزي: المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٩.

١٥١- أسامة بن منقذ: لباب الآداب، ص٤٦٨. ثمة الكثير من المصنفات السابقة على عصر أسامة وحملت عنوان: "مكارم الأخلاق" والمنسوبة إلى بعض المصنفين على غرار ابن أبي الدنيا وابن بلال وأبي بكر محمد بن جعفر السامري الخرائطي (ت: ٣١٧هـ)، ولرضي الدين النيسابوري وأبي منصور أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الواحد ابن الصباغ (ت: ٤٩٤هـ) وغيرهم كثير، ونظرًا لعدم وقوفنا على مصنف أسامة الذي يحمل العنوان ذاته أو على نصوص من كتابه فلم نقف على علاقة كتابه بالمُصنفات السابقة عليه. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، جـ٢، ص١٨١٠-١٨١١.

بفعل الزلازل وانهيار نفوذهم فيها، علاوة على خروج كثير من الأمراء للحياة كغرباء خارج شيزر، وتعرضهم للتنقل وفقدان بعضهم لممتلكاتهم بما في ذلك الكتب مثلما حدث لأسامة من خسارة أربعة آلاف مجلد في أثناء إبحار أسرته من مصر إلى الشام، وما سوى ذلك من العوامل التي جعلت من الصعب الوقوف على جميع ما صنفه بنو منقذ في العلوم والآداب.

وقد لحظ الباحث غلبة الطابع العربي الإسلامي على تلك المصنفات لغة وأسلوبًا؛ خصوصًا أن أهم مجالات تلك الثقافة المُؤثرة في صبغة الحضارة ذات مصادر وجذور عربية كالأدب بعامة والشعر بخاصة علاوة على علوم القرآن والحديث والتاريخ والمناقب والجغرافيا والتصوف والزهد، وعلى الرغم من استئثار أسامة بن منقذ بالنصيب الأوفى والأوفر في انتاج أسرته نتيجة لعمره الطويل (٤٨٨-٥٨٤هـ/١٠٩٥-١١٨٨م) ولشهرته واتصاله بأبرز قادة عصره والتقائه بالمحدثين والمؤرخين والعلماء والأدباء، فإن ذلك البريق الذي أحاط بأسامة لم يقلل من اسهامات غالبية بني منقذ وانتاجهم في العلوم والآداب، وقد أكد المؤرخون والمترجمون اللاحقون أهمية تلك المُصنفات التي لم يُهتد بعد إلى مظان وجودها، وذلك لأنهم أخذوا عنها ونقلوا بعض نصوصها في مصنفاتهم، ويتصدرهم الأصفهاني وياقوت الحموي وابن خلكان وابن واصل وأبي شامة وأبي الفداء والذهبي وابن العديم وابن الفرات وابن شداد وغيرهم كثير من المؤرخين والمصنفين.

ولا ريب في أن ثمة خسارة كبرى نتيجة لبقاء تلك المصنفات التي لم يُهتد بعد إلى مظان وجودها رهينة الإهمال والنسيان، ولذا فإنني أوصي بضرورة تخصيص لجنة علمية لديها من الكفاءة والخبرة والشغف العلمي للبحث عن هذه المصنفات الكثيرة والغائبة في مختلف فروع العلوم والآداب، لأنه على الرغم من الاهتمام الذي حظي به أسامة في معظم الدراسات الحديثة فلا تزال أغلب مُصنفاته وآثاره العلمية هو وغيره من أفراد أسرته لم يُهتد بعد إلى مظان وجودها.